﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾ [القمر: 23 - 32]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلها:

الانتقال مِنَ الإجمال إلى التّفصيل

لمّا ذَكرتِ الآياتُ السّابقةُ قصّةَ عادٍ، ناسبَ ذكرَ مَن تلاهم في الزّمان وفي الذّكر الحكيم، فبَيّن القِصّتَين تكامُلٌ في ذِكْر أسبابِ العذاب، وجاءَت قِصّةُ عادٍ على طريق الإجمال، وقصّةُ ثمودٍ على طريق التّفصيل، فناسبَ ذكرَ التّفصيل بعد الإجمال.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسُعُرٍ﴾: أصل (سعر) يَدُلُّ على اشتِعالِ شيءٍ واتِّقادِه وارتفاعِه، وسُمّي الجنون بالسُّعُر؛ لأنَّهُ يَستَعِرُ في الإنسان[1]. والسَّعير: النّار، والسُّعار حرُّها، وهو السُّعُر أيضًا. وسُعِرَ الرَّجُل فهو مَسعورٌ، إذا ضربَهُ السَّموم والعَطش[2]. والسَّعِرُ: المَجنون، وجَمعُهُ سُعُرٌ[3]. والمُرادُ هنا: شَقاء وعَناء وعَذاب، أو جُنون؛ من قولهم: ناقَةٌ مَسعورةٌ: إذا كانت كأنَّ بها جُنونًا[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سعر).
(2) الخليل، العين: (سعر).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (سعر).
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 107.

2) ﴿أَشِرُ﴾: أصل (أشر) يدلُّ على الحِدَّة. مِن ذلك قَولُهم: هو أشِرٌ؛ أي: بَطِرٌ مُتَسَرِّعٌ ذو حِدَّةٍ[1]. والأشَر: المَرَحُ والتَّجَبُّرُ والكِبرياء[2]. والمراد هنا: مُتَكَبِّرٌ بَطِرٌ يُريدُ أن يَتَعاظَمَ علينا بالنُّبوَّة[3].

3) ﴿فِتْنَةً﴾: أصلُ الفِتنَة مِنَ الفَتْنِ، وهو الإحْراقُ[4]، يُقالُ: فتَنْتُ الذَّهَبَ؛ أي: أحرَقْتُهُ بالنّارِ؛ لِتَمييزِ الجَيِّدِ مِنَ الرَّديءِ، ويُسَمَّى الصّائِغُ: الفَتّانُ، وكذلكَ الشَّيطانُ[5]. والفَتْنُ أيضًا: إدخالُ الرَّوعِ والاضطِرابِ على العَقلِ بسَبَبِ تَسليطِ ما لا تَستَطيعُ النَّفسُ تَحَمُّلَهُ[6]، والفِتنَةُ: الابتِلاءُ والامتِحانُ والاختِبارُ، يُقالُ: فتَنْتُهُ، أفْتِنُهُ، فتْنًا وفُتونًا: إذا امتَحَنْتُهُ[7]، وهو المقصود به في الآية؛ أي: اختبارًا وامتحانًا حتّى يَظهرَ للعِباد ما نحن عالِمون بما يكونُ منهم[8].

4) ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾: أصلُ (رقب) يدلُّ على الانتظارِ والتَّرَصُّدِ، يُقالُ: رَقَبْتُهُ وأرْقَبْتُهُ وارْتَقَبْتُهُ؛ أي: انتَظَرْتُهُ وتَرَصَّدْتُهُ[9]. ومنه المُراقَبَةُ: حِراسَة الشَّيءِ ومُلاحَظَتُهُ، يُقالُ: راقَبَ الشَّيءَ ورَقَبَهُ، مُراقَبَةً ورِقابًا؛ أي: حَرَسَهُ ولاحَظَهُ[10]. وتأتي بمعنى الحِفظِ. ورَقيبُ القَومِ: حارِسُهُم وحافِظُهُم. وتُطلَقُ المُراقَبَةُ على الخَوفِ والخَشيَةِ، يُقالُ: راقَبَ اللّهَ في أمرِهِ؛ أي: خافَهُ وخَشيَهُ[11]. والارتقابُ هنا معناه: التَّرقُّبُ، وهو (افتِعالٌ) من رَقَبَهُ إذا انتظرَه، مِثْلُ: رَقَبَ، وهو أبلغُ دلالَةً مِن رَقَبَ؛ لزيادةِ المَبنى فيه[12]. والمُراد هنا: فانتَظِرْهُم وتَبَصَّرْ ما هُم صانِعوه بها[13].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أشر).
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 108.
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 25/ 235.
(4) الخليل، العين: (فتن).
(5) ابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (فتن).
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 7/ 91.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتن).
(8) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 14/ 163.
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (رقب).
(10) الجوهريّ، الصّحاح: (رقب).
(11) ابن سِيده، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (رقب).
(12) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 200.
(13) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 142.

5) ﴿شِرْبٍ﴾: أصلُ (شرب) يدلُّ على تناول كلِّ مائعٍ، ماءً كان أو غيرَه[1]، تقولُ: شَرِبْتُ الماءَ أشربُه شَرْبًا، وهو المَصدَرُ. والشَّرابُ: اسمٌ لِما يُشرَبُ، وجمعُه أشرِبَةٌ [2]، والشَّرْبُ: القَومُ الَّذينَ يَشرَبونَ، والشِّرْبُ: الحَظُّ مِنَ الماءِ[3]. وماءٌ شَروبٌ وشَريبٌ، إذا صَلَحَ أن يُشرَبَ وفيه بعضُ الكراهةِ[4].والشِّرْبُ في الآية معناه: نَوْبَةُ الاستِقاءِ مِن الماءِ[5].

6) ﴿مُّحْتَضَرٌ﴾: أصلُ (حضر) يدلُّ على الوُرودِ والمُشاهَدة[6]. ومنه الحُضورُ، نَقيضُ المَغيب والغَيْبة. وأحضَرَ الشَّيءَ، وأحضَرَه إيّاه[7]. واحتُضِرَ المَريضُ وحُضِرَ إذا حَضَرَهُ المَوتُ ونَزَلَ به، وهو مُحتَضَرٌ ومَحضورٌ[8]. والمُحْتَضَرُ: اسمُ مَفعولٍ مِنَ الحُضورِ وهو ضِدُّ الغَيبَة[9]. والعَرَبُ تَقولُ: اللَّبَنُ مُحْتَضَرٌ ومَحْضورٌ فغَطِّه؛ أي: كَثيرُ الآفَةِ، يَعني: يَحتَضِرُه الجِنُّ والدَّوابُّ وغَيرُها مِن أهل الأرض[10]. وهو هنا بمعنى مَحضورٍ مَشهودٍ مُتَواسًى فيه[11].

7) ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾: أصلُ (عطو) يدُلُّ على أخذٍ ومُناولة[12]. فالعَطْوُ: التَّناولُ باليَدِ، قال الخليلُ: ومنه اشتُقَّ الإعطاءُ. والمُعاطاةُ: المُناولةُ[13]. ويُقالُ: عاطى الصَّبيُّ أهلَه، إذا عمِل وناوَل ما أرادوا[14]، والتَّعاطي: تناولُ ما لا يجوز تناولُه[15]، مُطاوِع عاطاهُ، وهو مُشتَقٌّ مِنْ عَطا يَعطو، إذا تَناوَلَ[16]. والتَّعاطي في الآية معناه: تناولُ الشَّيء بتكلُّفٍ، والمُرادُ به: اجترأ على تعاطي قتلِها غيرَ مُبالٍ بما يَفعَلُ[17].

(1) الرّاغب، المفردات: (شرب).
(2) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (شرب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرب).
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 201.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حضر).
(7) ابن سِيده، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب: (حضر).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (حضر).
(9) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 21.
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حضر).
(11) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 5/ 218.
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عطو).
(13) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سِيده، المُحكم، والرّاغب، المفردات: (عطو).
(14) ابن سِيده، المُحكم: (عطو).
(15) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عطو).
(16) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 52.
(17) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 27/ 166.

8) ﴿فَعَقَرَ﴾: أصلُ (عقر) يدلُّ على الجَرْحِ أو ما يُشبِهُ الجَرحَ مِنَ الهَزمِ في الشَّيءِ[1]. والعَقَر عند العرَب: كَسْف عرقوب البَعير، ثم جُعِل النَّحرُ عقرًا؛ لأنَّ العَقرَ سببٌ لنحره، وناحِر البعير يَعقِرُهُ ثمّ يَنحَرُه[2]. والعَقيرة السّاقُ المَقطوعَةُ، يُقال: عَقَرتُ الفَرَسَ بالسَّيف: إذا ضَربتُ قوائمَهُ[3]. والعَقّارُ: الَّذي يَعنُفُ بالإبِلِ لا يَرفُقُ بها في أقتابِها فتُدبِرَها[4]. والمقصود بالعَقرِ في الآية: ضَرْبُ النّاقةِ بالسَّيفِ على عَراقيبِها لِتسقُطَ إلى الأرضِ جاثيةً فيتمكَّنَ النّاحِرُ مِن نَحرِها.

9) ﴿صَيْحَةً﴾: أصلُ (صيح) تَشقيقُ الصَّوتِ، مِن قَولِهِم: انصاحَ الخشبُ، أو الثَّوبُ، إذا انشقَّ، فسُمِعَ منه صَوتٌ، وصيحَ الثَّوبُ إذا انشقَّ كذلك[5]، والصّياحُ صوتُ كُلِّ شَيءٍ إذا اشتَدَّ[6]. والصَّيحَةُ: العذابُ، يُقالُ: صيحَ في آلِ فُلانٍ إذا هَلَكوا. والصَّيحةُ: الغارةُ إذا فوجِئَ الحيُّ بها[7]. ولمّا كانَتِ الصَّيحَةُ قد تُفزِع، عبَّر بها عَنِ الفَزَعِ في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الحِجر: 73]، والصّائِحَةُ: صَيحَةُ المناحة[8]. والمراد بالصَّيحَةِ في الآية: صاعقةُ العَذابِ الَّتي نَزَلَت بقَومِ صالِحٍ فأحدَثَتْ رَجْفَةً في القُلوبِ وزَلزَلَةً في الأرضِ، وصُعِقَ بها جَميعُ القَومِ، فأصبَحوا في دِيارِهِم جاثِمينَ ساقِطينَ على وُجوهِهِم مَصعوقينَ لَم يَنْجُ مِنهُم أحَدٌ[9].

10) ﴿كَهَشِيمِ﴾: أصلُ (هشم) يدلُّ على كسْر الشَّيء الأجوفِ وغيرِ الأجوف، وهَشَمْتُهُ هَشْمًا[10]. والهَشْمُ: الكَسْرُ والتَّفتيتُ، يُقالُ: هَشَمْتُ أنفَه؛ أي: كَسَرت قَصبَتَهَ، والرّيحُ إذا كَسَرَتِ اليَبيسَ، يُقالُ: هَشَمَتْهُ، وتَهَشّم الشَّجرُ إذا يَبِس وتَكَسَّر[11]. والهَشيمُ: اسمٌ على وزنِ فعيلٍ بمعنى مَفعولٍ؛ أي: مَهشومًا مُحطَّمًا. والمراد به هنا: ما يَبِسَ وجَفَّ مِن أغصانِ العِضاةِ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عقر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عقر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقر).
(5) الرّاغب، المفردات: (صيح).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(8) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(9) رضا، المنار: 12/ 104.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هشم).
(11) الخليل، العين: (هشم).

والشَّوكِ وعظيمِ الكَلأ، كانوا يتَّخذونَ منه حَظائرَ لحفظ أغنامِهم من الرّيحِ والعادية[1]. فكانوا كالهشيم الَّذي يَجمعُه صاحبُ الحَظيرةِ؛ أي: قد بلغ الغايةَ في اليُبْس حتَّى بَلَغ إلى أن يُجمَع ليوقَد بهِ[2].

11) ﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾: أصل (حَظَر) يدُلُّ على المَنْع[3]. يُقالُ: احتَظَرَ على إبِلِه وغَنَمِه، وحَظَرَ؛ أي: جَمَعَ الشَّجَرَ ووَضَعَ بَعضَهُ فوقَ بَعضٍ؛ ليَمنَعَ بَرْدَ الرّيحِ، ويمنعَ السِّباعَ عَن إبِلِه ونَعَمِه[4]. والمرادُ هنا: صاحِب الحَظيرَة، مِنَ الحَظر: المَنع، والمُحتَظِرُ المُفتَعِلُ مِنَ الحظير؛ أي: مُتكلِّفُ عَمَلِ الحَظيرَة.

❁ المعْنَى الإجْمَاليُّ:

عنادُ ثمودٍ أمامَ آيـةِ الـنّـاقـة، ومـآلُ المُكذِّبين بعاقبتها

تُبيِّنُ الآياتُ الكريمةُ قصّةَ ثمودٍ في إثر قصّة قوم نوحٍ وعاد؛ للتّذكير والاعتبار، فيُبيِّنُ أنّهم كذَّبوا رسالتَه، وما أنذرَهُم به من عذابٍ، وسخِروا من دعوتِهِ، مُتسائِلين في استنكارٍ: كيف نتبعُ بشرًا مِثلَنا؟ إنّ فعلْنا فنحنُ في ضلالٍ وجنونٍ، ثمّ قالوا: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾؟ وادّعَوا أنّه كذّابٌ مُتكبِّرٌ. فردَّ اللّهُ عليهم: بأنّهم سيَعلمون مَنِ الكذّابُ الأشرُ، حين يأتيهم العذابُ، فقد أخذَتهُمُ الصّيحةُ، فهلكوا عن آخرِهم. وكان اللّهُ قد أرسلَ إليهم آيةً ظاهرةً؛ استجابةً لطلبهم حين سألوا أن يُخرِجَ لهم ناقةً من صخرةٍ عظيمةٍ. فاستجاب اللّهُ، وأخرجَ ناقةً عُشَراءَ مُعجِزةً في خَلْقها، وأمرَهم نبيُّهم أن يتركوها تأكلُ في أرض اللّه، وأن يُقَسِّموا الماءَ يومًا لها ويومًا لهم، وكانَت تشرَبُ مِنَ البئر يومَها، فيحصلون منه على لبنٍ وفيرٍ، تمرُّ به على أبوابهم. لكنَّهم كفروا النّعمةَ، وضاقوا بها،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 203.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هشم)، والزّجّاج، معاني القرآن: 5/ 90.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حظر).
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 112، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 142، والشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 153.

فعَقروا النّاقةَ بأيدي رجلٍ منهم، فعُجِّلَت لهم العقوبةُ، فأرسلَ اللّهُ عليهم صيحةً واحدةً أهلكَتهم، فأصبحوا جُثثًا هامِدةً، كالعُشب اليابسِ المُتناثِرِ في حظائر المَواشي. وتختمُ الآياتُ القصّةَ بتأكيد أنّ القرآنَ قد يسَّرَهُ للذّكر، فهل مِن مُتَّعظٍ يَعتبرُ بما حَوَته هذه الآياتُ مِنَ العِبَر، قبلَ أن يُدرِكَهُ المَصيرُ المَحتومُ[1]؟.

❁ الإيضاحُ اللّغَويّ والبلاغيّ:

مَوقِع جملة ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ ممّا قبلَها:

الّذين أعرضوا عن خطاب الحقِّ صُرِفَ عنهم فضلُ الانتفاع به

القول في مَوقِع جملة ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ كالقول في مَوقِع جملة ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾. وكذلك القولُ في إسناد حُكمِ التّكذيبِ إلى ﴿ثَمُودُ﴾ – وهو اسمُ القَبيلةِ – مُعتبَرٌ في الغالِبِ الكثيرِ، فإنَّ صالِحًا قد آمَنَ به نَفَرٌ قليلٌ[2].

نوع الباء ودلالتُها:

التّكذيبُ بآيات الله غايةُ العِناد والخُذلان

تحتمل الباءُ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ أن تكونَ للتّعدية؛ أي: كذَّبوا النُّذُرَ نفسَها؛ (أي: الرّسل أو الآيات الّتي أنذروا بها)، وأن تكونَ للمُلابسة؛ أي: كذَّبوا حالَ كونِهم مُلابسين للإنذار ومواجَهين به، فيكون المعنى: كذَّبوا تكذيبًا مَقرونًا بما جاءَهم من إنذارٍ مُتكرِّرٍ مُؤكَّدٍ، والتّعدية على اعتبار أنّ النُّذُر جمعُ نذير، بمعنى المُنذِر أو المُنذَر به، والمُلابسة على معنى أنّ النُّذُرَ مَصدرٌ بمعنى الإنذار[3]. والتّعديةُ بالباء أبلغُ مِن أن يُقالَ: (كذَّبَت ثمودُ النُّذُرَ)؛ لأنّه يُصوِّرُ تكذيبَهُم وكأنّه مُتلبِّسٌ بالآيات والنُّذُر نفسها، فيزيد في تقبيح فعلِهِم وإظهارِ عظيمِ جُرمِهِم.

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 5/ 212.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 195.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 326.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلنُّذُرِ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلنُّذُرِ﴾ عهديّةٌ ذهنيّة، ودلّ الجمعُ على عموم النُّذُر المَذكورة في القصّة؛ أي: بالإنذارات المُتكرِّرة الّتي جاءها بهم صالح ﷺ بدليلِ ما بعدها.

كذّبَ قومُ صالح بإنذارات نبيّهم المتكرّرة

نوع الفاء ودلالتُها:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ تفريعُ قولِهم على: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾؛ أي: بسبب تكذيبِهم قالوا له ذلك اعتراضًا عليه وجَحْدًا له[1].

بلاغة الاستفهام ودلالتُه:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ للإنكار على دعوة صالحٍ ﷺ، فهم يُنكرون أن يكونَ النّبيُّ بشرًا منهم، ويتعجَّبون منه.

إنكارُ ثمودَ أن يكون النّبيُّ بشرًا منهم، والتّعجّب من ذلك

دلالةُ ذِكر لفظِ البشريّة:

في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ تنبيهٌ على أنّ المُشابَهة في البشريّة لا تستلزمُ عدمَ التّفاوتِ في فضل الله تعالى! كما قال سبحانه: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التّغابن: 6]، ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: 34]، وهذا كثيرٌ في القرآن، وهذه الأقيسةُ فاسدةٌ[2]. فالاعتراضُ هنا فيه نقضٌ للنُّبوّة بعقليّة المَساواة الدّنيويّة، ورفضٌ للهداية بسبب الاستعلاء النّفسيِّ والجماعيِّ. وتعظيمُ العَددِ والاجتماعِ الضّالِّ مُقابلَ الانفرادِ المخصوص بالحقّ.

مَن ظنّ التّساوي بين البشر فقد خاصَم القَدَرَ وخالفَ الحقَّ

نُكْتَةُ تقديمِ المفعول:

قُدِّمَ ذِكرُ ﴿أَبَشَرًا﴾ على فعل الاتّباع في قوله تعالى: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 117، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 196.
(2) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 3/ 142.

الحيَلُ الفكريّةُ أسلـوبُ الأمـم المُراوغة

وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾؛ ليُفيدَ إنكارَهم وتعجُّبَهم مِن بشريّته؛ فإنكارُهم مُتَّجهٌ إلى أن يكون بشرًا مَتبوعًا، وليس مُتَّجِهًا إلى وجودِ مُتَّبِعٍ؛ لذا قُدِّمَ المفعولُ على الفعل[1]، وهذا فيما زعمَه القومُ، وإلّا فالأمرُ لا يَعْدو أن يكونَ مُراوغةً منهم، هروبًا مِن اتّباع الحقِّ، ومخادعةً، ظنًّا أنّهم يَظفرون بالخلاص مِنَ الدّعوة إلى تقييد شهواتهم.

غرضُ تنكير لفظِ ﴿أَبَشَرًا﴾:

تهوينُ ثمود من شـأن الأنبـياء وتحقيرُهم

نُكِّرَ لفظُ ﴿أَبَشَرًا﴾ للتّهوين والتّقليل والتّحقير، فهُم لا يرَون أنّ البشرَ أهلٌ لِأن يُتَّبَعَ، ولا أهلٌ أن يُنزّلَ عليه وحيُ السّماء.

توجيهُ تفصيلِ تكذيبِ ثمودَ دونَ عاد:

ذِكـرُ أقـوالِ السّـابِـقـين لـلـتّـلـويـح بـمَـصيرهـم إنِ استمرَّ العِناد

لمّا ذَكرتِ الآياتُ السّابقةُ تكذيبَ عادٍ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ لم يُفَصَّل فيها ذِكرُ أقوالهم، بينما فُصِّلَ تكذيبُ ثمودَ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾؛ وذلك لقصدِ بيانِ المُشابهة بين تكذيب ثمودَ وتكذيبِ قُريشٍ؛ إذ تشابهَتْ أقوالُهم[2]، كما ذكرَت ذلك سورةُ (ص).

نُكْتَةُ إيثارِ الغَيبة على الخطاب:

التّـحـقـيرُ والإعـراضَ عـنِ الـنّـاصـح مـن صـفـات المَخذولين عنِ التَّبصُّر

إيثارُ الغَيبة على الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾، بدل أن يقولوا: (أنتَ بشرٌ منّا واحدٌ، أنتَّبِعُك؟)، تحملُ في طيّها بلاغةَ التّحقير والتّقليل من شأنه، فحين يتكلَّمُ الإنسانُ عن مُخاطَبه بصيغة الغَيبة بدلَ الخطاب، فهو يتعمَّدُ الإعراضَ عنه؛ لأنّه لا يَستحِقُّ أن يكونَ محلَّ الخطاب، فهو احتقارٌ مُغلَّفٌ بالإعراض، والغَيبةُ توحي بأنّهم يتكلَّمون عنه فيما بينَهم، فهُم في مَجلِس مُغلَق يَتدارَسون أمرَهُ، وهذا يُعزِّزُ التّواطؤَ الجماعيَّ على التّكذيب، بخِلاف الخطاب فيكون هناك تواصُلٌ بينهم وبينه.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 196.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 196.

نوع (مِنْ) ودلالتُها:

عِـلَّـةُ الـكِـبرِ الحَسدُ، وآفةُ الرّفضِ الحِقدُ

(مِن) في قوله تعالى: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا﴾ للتّبعيض؛ أي: أبَشَرًا واحدًا من أفرادِنا نتَّبعه؟ وهو اعتراضٌ على تميُّز شخصٍ مُعيَّنٍ مِن بينهم، وادعائه النّبوّةَ. وهذا أظهرُ في سياق الحسدِ والاستكبارِ الشّخصيِّ، فالاعتراضُ لا يَقتصِرُ على كون الرّسولِ بشرًا فقط، بل على كونه فردًا واحدًا مُتميّزًا مِن بينهم، مع أنّهُم يرَون أنفسَهم نُظراءَ له، وربَّما أحقَّ منه![1].

نُكتَةُ تقديمِ القيد على النّعت:

يـلـجـأُ أتْـبـاعُ الـبـاطـلِ إلى تكثير السّواد، ويَـنـخـدِعـون بكثرة أهله

التّرتيبُ الّذي وقَعَ في النّظم في قوله: ﴿مِّنَّا وَٰحِدًا﴾ بتقديم ﴿مِّنَّا﴾ على ﴿وَٰحِدًا﴾ يُعلي من شأن المانعِ العقليِّ الأهمِّ عندهم؛ وهو أن يكونَ من (جنسهم)، ثمّ يُضيف عليه مانعًا ثانيًا: أنّه (واحدٌ) فقط. وهذا أبلغُ في تصوير فسادِ اعتراضِهم. ولو قيل بترتيبٍ آخَر (أبشرًا واحدًا منّا) فسيجعل الانفرادَ في العدد هو الأبرزَ، ويجعل ﴿مِّنَّا﴾ في الدّرجة الثّانية، وهذا يُضعِف النّكتةَ البلاغيّة[2]. وفائدةُ التّركيب: أنّ قولَهم: ﴿مِّنَّا﴾ يصِفُ هذا البشرَ بأنّه واحدٌ من جماعتنا نحن، لا يفضلُنا في شيءٍ، وقولهم: ﴿وَٰحِدًا﴾ تزيد التّحقير؛ أي: ليس فقط من جنسنا، بل فردٌ واحدٌ، لا جماعةَ معه، ولا مقام، وهو ما يدلُّ على بُعْدِ القَبَليَّة الجَمْعيّة في عقليّة ثمودَ، الّتي سيطرَت على طرائق تفكيرهم.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارع مُضعَّفًا:

المـبـالـغـة في الفعل لإظهار صعوبة الاتّباع وعُسْرِ المُتابعة

التّعبير بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ يفيدُ إنكارَ اتّباعِ واحدٍ على الدّوام، فهُم يُنكِرون طلبَ الطّاعةِ الدّائمةِ للنّبيِّ، والمُتابعةِ المستمرَّة للوحي، وجاء فعل: ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ على التّضعيف لا التّخفيف، فلم يقُل: (نتْبَعُه) للمبالغة في الفعل؛ لأنّ اتّباعَهم

(1) ابن التّمجيد، حاشية ابن التّمجيد بهامش القونويّ: 18/ 326.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 171.

سيكون على غير مألوفِهم في الاعتقاد والسّلوك وموروثات آبائهم، فيحتاجون جُهدًا وشدّةً في الفِعلِ لو كان! كأنّهم قالوا: "نجاهدُ نَفسنا في خَلْعِ مَألوفِنا، وخِلافِ آبائِنا، والإقرارِ على أنفسِنا بسخافةِ العقلِ والعَراقةِ في الجهل، ونحنُ أشدُّ النّاسِ كَثرةً وقوّةً وفَهمًا ودِرايةً"[1].

بلاغةُ الاستعارة التّصريحيّة في لفظ الاتّباع:

الاستكبارُ عن الانقياد للحقِّ يَحجُبُ صاحبَه عن طُرُق الهداية

الفعل ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ جاء على سبيل المَجاز، فشُبِّهت طاعةُ النّبيِّ باتّباع شخصٍ؛ لأنّ الاتّباعَ في الأصل هو المَشيُ خلفَ القائدِ في الطّريق، أو لحوقُ الشّيءِ من غيره حِسًّا[2]، وصُرِّح بالمُشبّه به على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة لمعنى الانقياد والطّاعة والالتزام بما جاء به الرّسولُ ﷺ. فهنا نقْلٌ للَفظٍ من معناه الحِسّيِّ إلى المعنويّ على سبيل المُشابهة؛ أي: جَعْلُ الطّاعةِ كالمَشي خلفَ المَتبوع.

بلاغةُ جملةِ التّعليل:

جملة ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ تعليلٌ لإنكار أن يتّبعوا بشرًا منهم، تقديره: (أنتّبعك وأنت بشرٌ واحدٌ منّا؟!)؛ أي: إنّ حصل الاتّباعُ فنحن في ضلالٍ وسُعُرٍ.

معنى ﴿إِذًا﴾ ووظيفتها الرّابطة:

ترتيبُ النّتائج على المُقدّمات الباطلة صنيعُ أهل الضّلالات

﴿إِذًا﴾ حرفُ جوابٍ وجزاء[3]، ووظيفتُه في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾ الرّبطُ بين الجملة الّتي قبلَها والّتي بعدَها، وهي تُفيدُ أنّ ما بعدَها مُترتِّبٌ على ما قبلَها غالبًا، بإنكارٍ أو تعجُّبٍ أو استنكار، بحسب السّياق. والمعنى: إن اتَّبعنا بشرًا منّا، فنحن - بزعمهم - نكون في ضلالٍ ظاهرٍ، وخطأ جسيمٍ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 117.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (تبع).
(3) صافي، الجدول: 14/ 74.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 197.

غرض تتابعِ المُؤكِّدات:

عناد المُكذِّبين عن استكبارٍ أعمَى لا يَلين

تتابعَت المُؤكِّدات في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾، فـ(إنّ) تُفيدُ التّوكيد على مضمون الخبر، واللّامُ المُزحلَقة في ﴿لَّفِى﴾ زيادةُ توكيد على مضمون الجملة، و(في) تُفيدُ الظّرفيّةَ؛ أي: أنّهم غارقون مُنغمِسون في الضّلال؛ لبيان المُبالَغة المُفرِطة في استبعاد الهداية مع رسوخهم في العِناد، حتّى صارَت حُجَجُهُم مَشحونةً بالتّشديد المُتكرِّرِ الّذي لا يقوم على بُرهان[1].

بلاغة استعمال حرفِ الظّرفيّة:

تصويرُ شدَّة الانغماسِ في الضَّلال مبالغةٌ كاشفةٌ عن عُمق الضَّلال

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ حرفِ الظّرفيّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ في بيان موقف ثمودَ، والظّرفيّةُ مَجازيّةٌ، فهي ليست ظرفيّةً مكانيّةً حقيقيّةً، تدلُّ على مُبالغتهم في بيان شدَّة التّلبُّس بالضّلال والسُّعُر، حتّى كأنّهم مَغمورون فيه أو مُحاطون به كما يُحاطُ الشّيءُ بالظّرف. والمَجازُ مَجازٌ بالظّرفيّة، حيثُ شُبِّهَ الحالُ أو الصّفةُ الّتي تُلازمُ الإنسانَ بشيءٍ يُحيطُ به إحاطةَ الظّرف بالمَظروف. وفيه تصويرٌ بلاغيٌّ قويٌّ لشدّة الانغماس والتَّمكُّن مِنَ الضَّلال والجُنون. وقد تكرَّرَ هذا الأسلوبُ كثيرًا في القرآن الكريم، كقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ [هود: 110]، ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الانفطار: 13]؛ للدّلالة على شِدّة التَّلبُّس بالمعنى، لا مُجرَّدِ الوقوع فيه[2].

نُكْتَةُ الجمعِ بين الضَّلال والسُّعُر:

المُغالاة في الإنكار تفضَحُ الضَّلال

الجمع بين الضَّلال والسُّعُر في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ يَحملُ نُكْتَةً بلاغيّةً دقيقةً، وهي التّهويل والتّضخيم في إنكارهم. وهذا من أساليب الجمع بين المُتباينات لزيادة التّهويل، مثل قولهم: (خَرَف وجُنون) أو (عَمًى وصَمَم)، فكذلك عبّروا عن

(1) الخطيب وآخرون، التّفصيل: 27/ 159، 160.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 197.

تمام النّفْرة مِنَ الاتّباع، والمُبالغة في التّكذيب، بتصوير الإيمان به يُفضي بهم إلى الجهل والجنون والعذاب، "كأنّه وعدَهم بأنّهم إنِ اتّبعوه اهتدَوا ونجَوا مِنَ النّار، فقالوا بالعكس: لو اتّبعناك لَضَلَلْنا واعترفْنا بالسُّعُر بالنّار، عكسَ ما قال، وهذا من أشدِّ المُراغَمة للرّسل عليهم الصّلاةُ والسّلام والمُحادّة لله ﷻ"[1]، "وهذا الكلامُ من ضلالهم وشقائهم، فإنّهم أنِفوا أن يتَّبعوا رسولًا مِنَ البشر، ولم يأنفوا أن يكونوا عابِدين للشّجر والحَجر والصّور"[2]، فكان قولُهُم هذا كنايةً عنِ الجمعِ بين سوءِ السّبيلِ وسوءِ المَصير.

غرض تنكير لفظ ﴿ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾:

التّنوين في قوله تعالى: ﴿ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ للتّفخيم والتّهويل، والجمع بينهما يُؤكِّدُ على مدى غلوِّهم وإفراطِهم في استبشاعهم رؤيةَ أنفسِهم خاضعين للوحي والرّسول.

غلوّ ثمود وإفراطُهم في استبشاع خضوعهم للوحي والرّسول

نُكْتَةُ تقديمِ الضّلال على السُّعُر:

قُدِّمَ الضَّلالُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ على السُّعُر؛ لكون الضَّلالِ واقعًا في الدّنيا، وهو سوءُ السّبيل بغيابهم عن متابعة الحقِّ للجهل والعِناد، وأمّا السُّعُر فهو سوءُ المصيرِ وهو النّار، وهذا في الآخرة، وحتّى لو كان السُّعُرُ بمعنى الجُنون - على قولٍ في التّفسير - فحَقُّهُ التّأخير؛ لأنَّ الحُكمَ بالجُنون هو عاقبةُ من يَضِلُّ، فهو على معنى: ضلّوا فقيل عنهم: مَجانين لِضلالهم، فالجنونُ حُكمٌ مُستنتَجٌ بعد الضَّلال، مع مُراعاة الفواصل[3].

الضَّلالُ أمارةُ انتكاسِ العقل وخَرابِ الإدراك

دلالةُ إفرادِ الضَّلال وجَمْعِ السُّعُر:

أُفرِد الضَّلالُ وجُمِع السُّعُر في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾؛ لأنّ الضّلالَ مَصدرٌ، والسُّعُر جمع (سعير) باعتبار أنّ النّارَ

تكرارُ قولِ المُخالِفِ بقلب المَقصِد تَهَكُّمٌ مَقصودٌ

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة القمر، ص: 279.
(2) تيسير الكريم الرّحمن، تفسير السّعديّ، ص: 826.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 326، 327.

دَركاتٌ، فهي واحدةٌ باعتبار جنسها، ومَعدودةٌ باعتبار طبقاتِها[1]، فدلَّ ذلك على أنَّهم سمعوا النُّذارةَ ومَضمونَها مِنَ التّهديد بالوعيد، فأعادوا كلامَ صالحٍ ﷺ بطريق التَّهكُّم، كأنّهم قالوا: إنّ الضّلالَ والسُّعُرَ الّتي يُنذِرُنا إيّاها صالحٌ هي في اتّباعه لا في مُتارَكتِه وتركِ دعوتِه.

مَوقِع جملةِ ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾:

جملة: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ في مَوقِع التّعليل للاستفهام الإنكاريِّ الّذي قبلَها: ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾[2]؛ أي: أنّهم أنكروا اتّباعَ بشرٍ منهم، وعلَّلوا هذا الإنكارَ بأنَّ الذِّكرَ لم يُلقَ على جميعهم، أو على مَن يَرونَهُ أحقّ به، بل خُصَّ به هذا الواحدُ، فقالوا بتعجُّبٍ واستنكار: كيف نتّبعُه، وقد أُلقيَ الذِّكرُ عليه وحدَهُ مِن بيننا؟ فالمعنى: أنكروا الاتّباعَ، وعلّلوا هذا الإنكارَ بعدم اختصاصِه بشيءٍ ظاهرٍ مِنَ الفضل أو التَّميُّز عنهم، فكيف يُختار هو دونَ سواه؟ وهذا من جملة القياسات العقليَّة الفاسدة الّتي أبطلَها القرآنُ في أكثر مِن مَوضِع، كما في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ ۝٣١﴾ [الزّخرف: 31].

إنكارُ اصطفاءِ اللهِ للرّسل كِبرٌ يُفضي إلى العِناد

بلاغة الاستعارة ودلالتُها:

فعل (أُلقي) في الأصل يدلُّ على الطَّرح والرَّمي المادّيّ، كما تقول: ألقيتُ الحَجرَ على الأرض، لكن في قوله تعالى: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ﴾ استعارةٌ، إذ شُبِّهَ إنزالُ الوحي مِنَ السّماء بإلقاءِ شيءٍ مَحسوسٍ، فيكونُ من باب الاستعارةِ التّصريحيّة؛ لأنّ اللّفظَ المُستعمَلَ (أُلقي) قد استُعمِلَ في غير معناه الحقيقيِّ، وأُريد به الإنزالُ المَعنويُّ. وعلاقةُ الاستعارة: المُشابَهة في التّلقّي من عُلوٍّ، وبصورة مُفاجِئةٍ وقويَّةٍ، ممّا يُعطي للذِّكر أثرًا وهيبةً، ويوحي بثِقلِه

الـوحـي يَـنـزِلُ بعظَمةٍ تُـزَلْـزِلُ القلوبَ، وتُثبِتُ الحقَّ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 326.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 197.

وأهمّيّتِه، كما جاء في قوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المُزّمّل: 5]. ففي كلِّ ذلك تصويرٌ للجلال والعَظَمة والرّهبة الّتي تُرافِقُ نزولَ الوحي، ممّا يُضاعِفُ من جُرْم استكبارِهم وإنكارِهم له[1].

دلالة التّعبيرِ بصيغة المَبنيّ للمَفعول:

جاء التّعبيرُ بفعل الإلقاء بصيغة المَبنيِّ للمَفعول في قوله تعالى: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ﴾؛ لكون إلقاءِ الذِّكرِ هو مَوضِعُ الإنكار من ثمودَ، وهُم يَعلمون المُرسِل سبحانه، ولا سيّما أنّ الفعلَ العظيمَ والنّادرَ في نفسه ليس بحاجةٍ إلى تسمية فاعلِه؛ لأنّ القلوبَ أكثرُ ما يكون تعلُّقها بظاهرةِ حدوثِ الفعلِ لا بمصدر إحداثِه. كما أنّ في عدم تسمية الفاعلِ إشارةً إلى أنّهم أهلُ إعراضٍ عن اللّه سبحانه، لا يبحثون في حقائق الأمور، ولا يريدون أن يَحْصُلَ منهم استحضارٌ للّه سبحانه، ولو باللّسان والقول فقط، فهُم أهلُ تمرُّدٍ على اللّه قبلَ أن يتمرَّدوا على رسله.

مَوضِعُ إنكارِ ثمودَ في إلقاء الذِّكر على صالحٍ، لا في كونه مِنَ الله تعالى

نُكْتَةُ التّعبيرِ بـ(ألقي) دون (أنْزِل):

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بفعل (أُلقيَ) بدلًا من (أُنزل) في قوله تعالى: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ﴾ ليتضمَّنَ نُكتةً بلاغيّةً مُهمّةً، وهي: الإيحاء بالعَجَلة والقوّة والاندفاعِ في إلقاء الذِّكر[2]، بخلاف (أُنزل) الّتي تفيدُ القصدَ والجاهزيّةَ. ففي اختيار (أُلقي) نوعٌ مِنَ التّحقير في زعمهم؛ لأنّهم أرادوا الاستنكارَ: كيف يُلقَى هذا الذِّكرُ العظيمُ عليه دون غيره؟ فكأنّهم يَصفون الأمرَ كأنّه شيءٌ رُمي رَميًا بغير عنايةٍ، وعن غير دراسةٍ وحِكمةٍ، فجاء التّعبيرُ مُلائمًا لِموقِفهم الاستهجانيِّ. وقد تَحمِلُ الكلمةُ أيضًا في مَواضِعَ أُخرى معنى القوّةِ والجَدّيّةِ والوَقعِ الثّقيل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا

المُستكبِرُ يَرى عظمةَ الوحي إهانةً لا فضلًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 197.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 88، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (لقى).

ثَقِيلًا ۝﴾ [المُزَّمِّل: 5]، حيثُ يدلُّ على العظَمة والثِّقَلِ والتّأثير، لا على التّحقير، فكلُّ مَقامٍ له ما يناسبُهُ.

توجيه المتشابِه اللّفظيّ:

الألفاظُ القرآنيّةُ كاشفةٌ عن طبائع الأقوام وطرائق التّفكير

افترق التّعبيرُ في هذه السّورةِ بفعل الإلقاء في قوله تعالى: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ﴾، وفي سورة (ص) بفعل الإنزال في قوله تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ [ص: 8]؛ لبيان الفرق بين شخصية ثمودَ وشخصية قُريشٍ، فكانَت قُريشٌ أكثرَ اتّزانًا وأقربَ للثّبات النّفسيِّ من شخصيّة ثمودَ المُتمثِّلة بالعَجْرَفة واللّامبالاة، فالألفاظُ كاشِفةٌ عن حقائق الأقوام، إذ كلُّ لفظٍ يوحي بشخصيّة المُتكلِّم، ويومِئ إلى طريقة تفكيره.

دلالة استعمال أسلوب الاستفهام دون النّفي الصّريح:

الكشفُ التّاريخيُّ عن شخصية ثمودَ مُتغلغِلٌ في أساليب البيان

الاستفهام في قولهم: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ إنكاريٌّ بمعنى النّفي، كأنّهم قالوا: (ما أنزَلَ عليه الذِّكر)، وجاء النّفيُ بصيغة الاستفهام الإنكاريِّ دونَ النّفي الصّريح؛ لأنّه أبلغُ وأقوى في المعنى مِنَ النّفي الصّريح، فهو يكشِفُ عن طبيعة الحوار الدّائر بين النّاس في ثمودَ، فبعضُهم يسألُ والآخرون يُجيبون، وهذا يدلُّ على أنّ هناك مَن يُثيرُ على الملأ شبهاتٍ تدحَضُ مَوقِفَهم من دعوة الحقِّ، وهُم يقاومونها بهذه الأسئلة المُثيرةِ للشَّفقة، والكاشفةِ عن طبيعة الاستبداد في رفض الحقِّ، فالاستفهامُ له غرضٌ عريضٌ في الكشف عنِ الحوار الفكريِّ والعَقديِّ الدّائرِ في القبيلة، لا مُجرَّد أنّه أسلوبٌ بلاغيٌّ له غرضٌ ودلالةٌ ظاهرةٌ.

توجيه المتشابِه اللّفظيّ في التّقديم والتّأخير:

غَلَبَ على ثمودَ التّكذيب، وعلى قُريشٍ الحسد

آثر النّظمُ الكريم تقديمَ نائبِ الفاعل على الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ﴾، دون أن يقولَ: (أألقي عليه الذِّكر)؛ كما قال في سورة (ص): ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾

[ص: 8]؛ وذلك أنَّ ثمودَ غلبَت عليهم العُنجهيّةُ والتّكذيبُ، بينما غَلَبَ على قُريشٍ الحَسدُ والكِبرُ، ولذلك قُدِّمَ ذِكرُ الجارِّ والمجرور؛ لأنّه هو مَوضِعُ الإنكار، فنفوسُهُم تأبى أن ينزلَ عليه وحيٌ، وهو ما يُقوي نُكتةَ استعمالِ مُفردةِ الإنزالِ دونَ الإلقاءِ في (ص)، فهم يُقِرّون بإنزال الرّسالة لكنّهم لا يَعترِفون في أن تكونَ نازلةً على محمّدٍ ﷺ، وهو ما يوحي أنّ ثمودَ كان تكذيبُهم للرّسالة أشدَّ من تكذيب قُريشٍ، وحسدُ قُريشٍ كان أشدَّ من حسد ثمودَ، فلكلٍّ شأنُهُ في الشَّرِّ وحربِ الإسلام ونبذِ التّوحيد.

دلالة استعمالِ حرفِ الاستعلاء:

عُدّيَ فعلُ الإلقاء بحرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ﴾ باعتبار أنَّ الإلقاءَ يكون من عُلوٍّ، فاستعمال حرف الاستعلاء لبيان الواقع، وموقفِهم منه.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلذِّكۡرُ﴾:

الذِّكر المُرادُ هو المَعهود لدى ثمودَ من وحي ورسالةٍ

عُرّفَ لفظُ ﴿ٱلذِّكۡرُ﴾ للعهد الذّهنيِّ، على اعتبار ذلك الذِّكرِ المَعهودِ الّذي يَزعُمُ صالحٌ - بحسب اعتقادهم - أنّه وحيٌ مِنَ اللّه، فيكون مَحلُّ استغرابِهم نزولَ هذا الذِّكر المَخصوص على صالحٍ عليه السلام دونَهم.

نوع ﴿مِنۢ﴾ ودلالتُها:

الاعتراض على تفرُّد النَّبيِّ بالاصطفاء حَسَدٌ لا ابتغاء حقٍّ

في قوله تعالى: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾، ﴿مِنۢ﴾ هنا لابتداء الغاية، ومعناها: ابتداءُ الاصطفاء أو الإلقاء من مجموع الجماعةِ؛ أي: أأُلقي عليه الذِّكرُ، وابتُدئ باختياره من بيننا، مع أنَّ فينا مَن هو أولَى وأحقُّ - في زعمهم - ، فهُم يُنكِرون أن يبدأ التّفضيلُ أو التّشريفُ منه دونَ سواه، فكأنّهم يقولون: مِن بين هذا الجمعِ كلِّه، كيف وقعَ الاختيارُ عليه؟ فالآيةُ تُعبِّرُ عن اعتراضهم الحاسدِ المُستنكِر على تفرُّد الرّسول بالوحي من بين قومه، وهي صورةٌ من

صور الحَسَد والكِبر، كما في مَواضِعَ أخرى شبيهة، مثل: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ ٣١﴾ [الزّخرف: 31].

فائدة التّقييد بالظّرفيّة ودلالتها:

الحاسِدُ تفضَحُه كلماتُه، وتكشِفُ عورتَه إيماءاتُه

التّعبيرُ بقيد ﴿مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ يُشعِرُ بالتّمايز والاصطفاء من داخل الجماعة نفسِها، لا من خارجها. وهذا يُضخِّمُ في نظرهم وجهَ الإنكار! إذ كيف يُترَكُ الكُثراءُ والوجهاءُ والشّرفاء، ويُصطفى هو وحدَه؟ فالبينيّةُ ﴿مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ تجلّي ذلك الاستبعادَ، كأنّهم جعلوا الظّرفيّةَ (الاختيار مِنَ الوسَط) دليلًا على عدم أحقّيته، كما أنّ قولَهُم: ﴿مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ فيه تجليةٌ للحَسَد، فالظّرفُ يَرسُمُ مَشهَدَ اصطفاءِ فردٍ من وسَط جمعٍ غفيرٍ، فيَكشِفُ عنِ الغَيرة الكامِنةِ في قلوبهم.

نوع الإضراب ودلالتُه البيانيّة:

ما بعدَ الحَسدِ والكِبر إلّا التّطاولُ على الصّادِقين

لمّا أفادَ الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ النّفيَ والإنكارَ، أُتبِعَ بالإضراب بـ﴿بَلۡ﴾، وهذا من أساليب الانتقال مِنَ المَنفيِّ إلى ما يَزعمونه هو الحقيقة، فقالوا: ﴿بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾. وهذا العطفُ بـ﴿بَلۡ﴾ هو عطفُ إضرابٍ انتقاليٍّ؛ أي: انتقلوا من نفي الوحي عنه (بطريق الاستفهام الإنكاريِّ)، إلى إثبات وصفٍ سلبيٍّ له بزعمهم، وهو الكَذِبُ والبَطَر[1]، فجملةُ الإضرابِ معطوفةٌ على ما تضمَّنه الاستفهامُ الإنكاريُّ مِنَ النّفي المُقدَّر، فكأنّهم قالوا: ليس هو ممَّن يُلقَى عليه الذِّكر، ثمّ أضربوا انتقالًا عن ذلك إلى ادّعاء أنّه كذّابٌ أشِرٌ.

غرض التّعبير بالجملة الاسميّة:

الاسميّة تثبيتٌ للادّعاءِ المُتوهَّم في نظر ثمودَ

التّعبير بالجملة الاسميّة في قوله تعالى: ﴿هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾ يخدم غرضَ التّوكيد والإصرار على الاتّهام؛ ليكونَ إنكارُهُم أشدَّ وأبعدَ عنِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 119، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 198.

القَبول، وكأنَّ تعبيرَهُم هذا جاء ردًّا على احتمال أن يكونَ اختيارُهُ للوحي لفضيلةٍ أو استحقاقٍ، فحكموا عليه بحُكمٍ قطعيٍّ ثابتٍ في زعمهم بأنّه ليس أهلًا، بل هو في قمة الكَذب والبَطَر.

غرض التّعبير بصيغة المُبالغة:

تضخيمُ التّهمة والمبالغة فيها وسيلةٌ لتكذيب المُخالِف

جاء التّعبيرُ بصيغة المُبالغة في قوله تعالى: ﴿كَذَّابٌ﴾[1] لبيان حسدِ ثمودَ وحِقدِها على نبيِّ اللّه صالحٍ ﷺ بأنّه كثيرُ الكَذب، مُتمادٍ فيه، لا يُتصوَّرُ منه صدقٌ أصلًا، فجاءَتِ الصّيغةُ لتغليظ التُّهمةِ وتضخيمِها، فلم يتَّهموه بأنَّه مُجرَّدُ كاذبٍ، بل هو كذّابٌ مَطبوعٌ على الكذب؛ ليكونَ لهم توطئةً لإسقاط أهليَّتِهِ لِتَلَقي الوحي، فالمبالغةُ وسيلةٌ لإقناع أنفسهم ومَن حولهم بنفي كلِّ إمكانيّةٍ لصدقِه.

دلالة تقديم ﴿كَذَّابٌ﴾ على ﴿أَشِرٌ﴾:

تهمةُ الكذب هي الألصقُ بردِّ الرّسالة، والأشِرُ تعليلٌ لذلك

قُدِّم ذكرُ ﴿كَذَّابٌ﴾ على ﴿أَشِرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾؛ وذلك لأنَّ تهمةَ الكَذِب هي الأشَدُّ ارتباطًا بالرّسالة، فالكاذِبُ لا يُؤتمَنُ على الوحي، فجعلوها الأساسَ وقدَّموها، ثمّ ثنَّوا بوصف ﴿أَشِرٌ﴾، والأشِرُ في اللّغة: هو المُتطاوِل البَطِر الطّاغي، فهو ليس مُجرَّدَ كذّابٍ، بل كذّاب مُتغطرِس مُتعالٍ؛ وذلك لتصويره في هيئة المُتعاظِم البَطِر الّذي يَتوهَّمُ لنفسه ما ليس له. وهذا التّرتيبُ يُسوّغُ لهم ردَّ دعوة صالحٍ ﷺ من أصلها؛ إذ نفيُ الصّدقِ يَقتلِعُ دعواه من جذورها، ثمّ وصفُ الأشِرِ يُسَوّغُ استنكارَهم اختصاصَه مِنْ بينهم بالوحي، فكان ذِكرُ الأشِرِ بعد الكَذّابِ تعليلًا؛ كأنّه قيل: لماذا كَذَبَ هذا الكذبَ العريضَ؟ فكان التّعليلُ بأنّه أشِرٌ!.

بلاغة حذف العامل في جملة ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾:

جملة: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ دلّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 119.

عليه السّياقُ تَقديرُهُ: قلْنا لِنذيرِهم، وهو رسولُ اللّه إليهم[1]. فالجملةُ حكايةٌ لِما قالَهُ ﷺ لصالحٍ ﷺ وعْدًا له ووعيدًا لقومه[2]، وحُذِفَ فعلُ القول لبيان المُباغتة في الرَّدِّ عليهم، وأنَّ الأمرَ للّه تعالى وحدَه.

وَعْـــدُ الـلـهِ لأنبيائه ووعيدُه لجاحديهم حقٌّ مباغِتٌ لا يُرَدُّ

دلالة إلحاق السّين بالمُضارع:

السّين في قوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ تُفيد التّقريب والتّأكيد، وهي تختلف عن (سوف) التي تُفيد مطلقَ الاستقبال، وقد تُفيد التّراخي. ونُكْتَةُ التّعبير بـ (السّين) دون (سوف): تقريب زمن الوعيد، فكأنّ اللّه يقول: ليس بينكم وبين انكشاف الحقيقة إلّا وقتٌ يسير. وهذا فيه تهديد صريح، وسخرية ضمنيّة من المُكذّبين الكاذبين، وتأكيدُ تحقّقِ الخبر، فدُخولُ السّين على الفعل (يعلمون) يُفيد تأكيد وقوعه، أي: أنّ العِلم حاصلٌ لا محالة[3].

اقـتراب الوعيد يـجـعـل الـحـقَّ أظهرَ وأرهَبَ

توجيه القراءات القرآنيّة:

اختلف القرّاءُ في قوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾؛ فقرأ بياء الغَيبة الجمهورُ، وقرأ بالخِطاب ﴿سَتَعْلَمُونَ﴾ ابنُ عامر وحمزة[4]، فهي تحتمل أن يكون هذا حكايةَ كلامٍ مِنَ اللّه لصالحٍ ﷺ، على تقدير: (قلْنا له: قُلْ لهم)؛ ففيه حذفُ قَولٍ. ويَحتملُ أن يكونَ خطابًا مِنَ اللّه لهم، بتقدير: (قلْنا لهم: ستعلَمون). ويحتمل أن يكونَ خطابًا للمُشرِكين على جعل الجملة مُعترِضة[5].

اختلافُ الخطاب والغَيبة يُؤثِّرُ في تعيين المَقصود بالكلام

بلاغة الاستفهام وغرضه:

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ جاء بمعنى التّقريع والتّوبيخ والتّهديد، فهو استفهامٌ إلزاميٌّ، يَقلِبُ

الاسـتـفـهـامُ وسيلةُ التّقريع الـكـاشـفِ عـن حقائق الأشياء

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 198.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 171.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 171.
(4) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 380.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 438، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 166، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 44، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 172.

دعواهم عليهم؛ إذ نسبوا الكذبَ والأشِرَّ إلى صالحٍ ﷺ، فجاء الجوابُ مُعلَّقًا على المُستقبل؛ ليكشِفَ لهم أنّ الحقَّ سينجلي عن قريبٍ، وأنّ الكذّابَ الأشِرَ ليس الرّسولَ بل هم. فالاستفهام هنا يحقّقُ غرضين؛ الوعيدَ بما سيلقونه مِنَ العذاب القريب، والإلزامَ بإثبات كذبِهم من خلال الواقع لا بمُجرَّد المُجادَلة[1].

بلاغة الاستعارة التّصريحيّة في لفظ ﴿غَدًا﴾:

حياة كلِّ إنسان يومٌ غدُهُ القيامة

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ ﴿غَدًا﴾ في قوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ دون (السّاعة) أو (القيامة)؛ لتقريبِ الزّمن في حِسّ السّامع، فالعقوبةُ وشيكةٌ، فالغدُ هو اليومُ التّالي للحاضر، فيكون مَحمولًا على تشبيه يوم القيامة لشدّة قربِه باليوم التّالي، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة، وهو من أساليب التّهويل والوعيد القريب.

نُكْتَةُ تقديم ﴿غَدًا﴾:

توكيدُ التّهديد، وإبـراز القـرب الزّمنيّ

قُدِّمَ لفظُ ﴿غَدًا﴾ على قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾؛ لِما في التّقديم من توكيد التّهديد، وإبراز القرب الزّمنيِّ، ولفت الانتباه إلى عِظَم ما سيقعُ في ذلك (الغد).

براعة إعادة كلامِ الخَصْم في الرّدّ عليه:

الإشعـار بقـوّة الفـعـل وعِـزّة المُتكلِّم يُضفيان عـلى الخـطـاب بغتةَ المُندهِش

جاء الرَّدُّ على ثمودَ حين وصفوا صالحًا ﷺ بأنّه: ﴿كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ بالألفاظ نفسها في قوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾؛ لتكونَ الحُجّةُ أبلغَ عليهم، وكأنّما أُخذوا من كلامهم ليُقذفَ به في وجوههم، فينكشِف أنَّ الوصفَ الّذي رمَوه به هو عينُ ما يَصدُقُ عليهم. وهذا الأسلوب يُرسِّخُ الإلزامَ والتّبكيتَ، ويُشعِرُ أنّ القضيةَ ستُحسَمُ بالفعل لا بالجدال؛ ليعلموا عمليًّا مَنِ الكذّابُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 119، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 328.

ومَنِ الصّادقُ، وبذلك يتحقَّقُ التّهديدُ والوعيد مع إبطال باطلهم بأبلغِ صورةٍ[1].

مَوقِع جملة ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ ممّا قبلها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ﴾ بيانٌ لقوله: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾[2]، كأنّه قال: سيعلَمون الكذّابَ الأشِرَ حيث نُرسِلُ النّاقةَ لهم[3].

فائدة توكيد قوله: ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ﴾:

تراكمُ التّوكيد يُبرِزُ خطورةَ النّاقة فتنةً فاصلة وتهديدًا واقعًا

افتتاح قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ﴾ بـ(إنّ) مع ضمير العظَمة والتّعبير بالاسميّة؛ لزيادة التّقرير وتثبيت المعنى في ذهن السّامع، وعلّةُ هذا الإيراد التّأكيديّ أنّ النّاقةَ لم تكُن أمرًا عاديًّا بل آيةً عظيمة فاصِلة. وفي هذه المُؤكِّدات تقويةٌ ليقين النّبيِّ ﷺ، وشدُّ أزره، وترسيخُ أنّ الأمرَ حقٌّ لا مَحيدَ عنه، وأنَّه فِتنةٌ وامتحانٌ لا شكَّ في وقوعه.

دلالة التّعبير باسم الفاعل:

وعدُ اللهِ بإرسال النّاقة أمرٌ مَحتومٌ لا مَفرَّ منه

جاء التّعبير باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ للاستقبال، بقرينة قوله: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا﴾، وقد تقدَّمَ أنّ الجُملتَين كالمُبيَّن والمُبيِّن، وبقرينة قوله: ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ﴾؛ أي: سنرسِلُها فارتقِب ذلك مُستقبَلًا[4]، ولم يأتِ التّعبيرُ بصيغة الفعل المضارع؛ ليجمعَ دلالتين: دلالةَ الحَدَث في المُستقبل، ودلالةَ تحقيق الأمر وثبوته.

بلاغة اختلاف التّعبير بفعل الإرسال بين القصّتين:

اجتباءُ الصّيغ باعتبار زمنِ الحَدَث وطبيعته

اختلف التّعبيرُ بفعل الإرسال في قصتي عاد وثمود، فقد عبَّرَ بالفعليّة في قصّة عادٍ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 88.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 199.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 308.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 308.

وعبَّرَ بالاسميّة في قصَّة ثمودَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾، والنّكتة في تلك المُبايَنة تعود إلى اختلاف المَقام والغرض البلاغيِّ، ويتجلّى الفرق في أنّه جاء بالفعل ماضيًا ﴿أَرْسَلْنَا﴾؛ لأنَّ الحديثَ عن عذاب عادٍ قد وقَعَ، فهو سردٌ للقصّة، فالسّياقُ يحكي خبرًا واقعًا. وفي ثمودَ جاء بصيغة اسم الفاعل ﴿مُرْسِلُواْ﴾؛ للدّلالة على أنَّ الإرسالَ لم يقعْ بعد، وإنّما هو وعدٌ إلهيٌّ بالعذاب مُعلَّقٌ على الفتنة الّتي يُختبرون بها، وهي النّاقة، فـ ﴿مُرْسِلُواْ﴾ يدلُّ على تحقيق الوقوع مع قُربه واستمراريّته في التّقدير، وأنّ هذا الأمرَ مُقرَّرٌ ومُحتَّمٌ في عِلم الله، لا يَتخلَّفُ، فهو بمثابة تقريرٍ قد صَدَرَ.

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿مُرْسِلُواْ﴾:

في قوله سبحانه: ﴿مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ شُبِّهَت النّاقةُ بمُرسَلٍ أو رسولٍ شاهدٍ عاقِلٍ، يُرسِلُهُ اللّهُ ليُؤيّدَ به دعوى صالحٍ عليه السلام، واستُعير لها فعلُ (الإرسال) الّذي هو مُختَصٌّ بالآيات والرُّسل، فصار ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ بمعنى: (جاعلوها آيةً مُرسَلةً كشاهدٍ بالصّدق). فشُبِّهَ جَعْلُ النّاقةِ آيةً وإظهارُها لخوارق العادة، بإرسال رسولٍ من عند الله بآيةٍ لتصديق دعواه، بجامع كون كلٍّ منهما وسيلةَ إقامةِ الحُجّةِ والتّصديق. وهذه استعارةٌ تصريحيّةٌ، حُذِفَ فيها المشبَّه (جَعْلُها آيةً)، وصُرِّحَ بالمشبَّه به (الإرسال)، ومن لطائف الاستعارة: تشريفُ النّاقة بجَعْلِها مُرسَلةً لإقامة الحُجّة، وتبكيتُ ثمودَ الّذين ما انتَفعوا بإرسال صالحٍ عليه السلام.

الإرسالُ في النّاقة مَجازٌ عنِ الإخراج، أو كنايةٌ عنِ التّحدّي والفتنة

بلاغة التّعبير بمُفردة ﴿فِتْنَةً﴾:

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بمفردة ﴿فِتْنَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾؛ لبيان مَقصود الإرسال، وأنّه حاسمٌ في تحقيق الغاية الّتي لأجلها أُرسِلَتِ النّاقةُ، وما ينبني عليها من تمحيص النّاس، وتمييزِ الخبيث مِنَ الطّيّب، ولا أدلَّ على معنى

من وظائف المُفردة القرآنيّة بيانُ مَقصود الأفعال

الفتنة أن تكونَ النّاقةُ مُستأثِرةً بيومٍ في الشُّرب، وثمودُ بيومٍ آخر، والفتنة: هي ما يُصيبُ النّاس قُبَيْلَ الانتصار لدين الله تعالى، فيقعُ التّمييزُ بين النّاس، فيهلك مَن هلك عن بيّنةٍ ويحيا مَن حيَّ عن بيّنةٍ، فوظيفةُ المُفردة هنا هو إظهارُ مَقاصديّة الإرسال، وتحقيقُ التّمييز بين المؤمنين والكافرين؛ ليأتيَ العذابُ حقيقًا بأهله، فتقومَ الحُجّةُ على مَن بعدَهم، أنّه الله لا يَظلِمُ النّاسَ شيئًا، وإعراب ﴿فِتْنَةً﴾ مفعولٌ لأجله، أو حال[1]، يُقوّي دلالةَ المقاصديّة في الآية.

نوع اللّام ودلالتُها:

اختصاص كلّ قوم بابتلاء يكشِفُ عن الحكمة الإلهيّة في فتنة النّاس

اللّام في ﴿لَّهُمْ﴾ لام التّخصيص؛ أي: أنّ هذه الفتنة ليسَت مُطلَقةً، بل مَقصورة عليهم دون غيرهم، فيكونُ إرسالُ النّاقة ابتلاءً خاصًّا بثمودَ، يُكشَفُ به مَوقِفُهم، ويُظهِرُ عنادُهُم، وتخصيصُ الفتنة بهم في قوله: ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ إشارةٌ إلى عدل الله، إذ يَبتلي كلَّ قومٍ بما يناسبُ حالَهم؛ ليُظهرَ صدقَهم أو كذبَهم.

غرض الأمر ودلالتُه:

انتظار ما سيؤول إليه أمرُ ثمودَ مع النّاقة

الأمر بالارتقاب في قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ محمولٌ على معناه الأصليّ، بغرض انتظار ما سيؤول إليه أمرُ ثمودَ مع النّاقة، مع الإيماء إلى أنَّ دعوتَهُم قد أخذَت منحًى آخر.

نُكْتَةُ المَجاز بالحذف:

الرّحمة أساسُ العدلِ الإلهيّ، والعدلُ سابقٌ لعذاب الله

عُدّي الارتِقابُ إلى الضّمير في قوله سبحانه: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ على تقديرِ مُضافٍ يَقتضيه الكلامُ؛ لأنَّه لا يَرتقِبُ ذواتَهم، وإنّما يَرتقِبُ أحوالًا تَحصُلُ لهم. وهذه طريقةُ إسنادِ أو تعليقِ المُشتقّاتِ الّتي معانيها لا تُسنَدُ إلى الذّوات، فتكونُ على تقديرِ مُضافٍ؛ اختصارًا في الكلام، واعتِمادًا على ظهور المعنى. والمعنى: فارتَقِبْ ما يَحصُلُ

(1) الخطيب وآخرون، التّفصيل: 27/ 162.

لهم مِنَ الفتنة عند ظهور النّاقة[1]. ونُكتةٌ أخرى وهي تسليطُ الضّوء على ما سيصدرُ عنهم من أعمالٍ ومَواقِفَ تُعيِّن مصيرَهم بإرادتهم؛ أي: فارتقِبْ اختيارَهم وإرادتَهم فيما سيحصُلُ لهم.

نُكتة التّعبير بصيغة (افتَعلْ):

انتظار المُرتَقب والصّبر عليه ترضيَةُ النّفس لِما سيقع

جاء التّعبير بصيغة (افتعل) في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ﴾؛ ليدلَّ على التَّكلُّف في الفعل والانتباهِ إلى أنّ المُرتقَب أمرٌ جَلَلٌ يتطلَّبُ حَذرًا وترقُّبًا بالغًا. فالتَّرقُّبُ هنا هو عبارةٌ عن انتظار أمرٍ مَحتومِ الوقوع، ولمّا ارتبطَ بنزول العذاب لِمَعرفة مَوقِف ثمودَ مِنَ الإيمان والتّوحيد، ازدادَ عبئُهُ على صالحٍ ﷺ، ولذلك عُطِفَ عليه الأمرُ بالاصطبار.

بلاغة الإيجاز بين المُتعاطِفات:

من مَعاقد البلاغة حذفُ ما يدلُّ عليه السّياق

جملة: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ معطوفةٌ على قوله: ﴿مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾، باعتبار أنّ الوعدَ بخَلق آيةِ النّاقةِ يقتضي كلامًا مَحذوفًا، تقديره: فأرسلْنا لهم النّاقةَ، وقلْنا: نبئهم أنّ الماءَ قِسمةٌ بينهم، على طريقة العطف والحذف في قوله: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشّعراء: 63]، وإنْ كان حرفُ العطف مُختلفًا، ومثلُ هذا الحذف كثيرٌ في إيجاز القرآن[2]، فآيةُ الشّعراءِ العطفُ فيها بالفاء الفصيحة؛ أي: ضَرَبَ فانفلَقَ، وهنا جاء العطفُ على مَفهومٍ مِنَ السّياق.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡمَآءَ﴾:

الماءُ المَقصودُ هو معهودٌ في الأذهان، مَنقولٌ في الأخبار، مُشاهَدٌ وقتَ النّزول

(أل) في ﴿ٱلۡمَآءَ﴾ للعهد، تُشير إلى ماءٍ معلومٍ في الذّهن، وليس ماءً مُطلَقًا؛ أي: هو ماءُ القرية الخاصّ الّذي يَشربُ منه القومُ، ويَسقون أنعامَهم، فليس الكلامُ عن مُطلَق الماء، بل عن مَوردٍ مُحدَّدٍ،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 200.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 200.

مُشترَكٍ، مَعروف عندهم، يقعُ عليه النّزاعُ، ويجري فيه الاختبارُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: 23]، فهو أيضًا ماءٌ مَعهودٌ معروفٌ؛ أي: البئر أو العين الّتي كانَت لسقيا أهلِ مَدين[1].

وفائدةُ العهد هنا: توجيهُ المُعجزة والفتنةِ إلى مَوردِ مَعاشِهم المُشترَكِ؛ تحقيقًا للابتلاء والتّمييز بين مَن يَرضى بأمر اللّه فيَقْسِم الماءَ، ومَن يتعدَّى.

نُكْتَةُ الإخبار بالمصدر في ﴿قِسۡمَةُۢ﴾:

عدالةُ القِسْمَة تُمهِّد لاختبار الطّاعة والانقياد

الإخبار بالمصدر بدلَ اسمِ المفعول في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ﴾، فلم يقُل: (مقسوم)؛ للمبالغة في تحقُّق المعنى. والتّوكيد على أنّ الفعلَ ثابتٌ مُستقرٌّ في المَوصوف، لا طارئٌ عليه، كأنّ المعنى: أنّ الماءَ قد بَلَغَ في وضوح قِسْمته وثباتها مَبلَغًا صارَ معه كأنّه هو نفسُ القِسمة، لا مُجرَّدَ شيءٍ مَقسوم، فلا يُحتاج إلى بيان كيفيّة تقسيمه[2].

دلالة التّعبير بـ﴿قِسۡمَةُۢ﴾ مادّةً وصيغةً:

الإخبار بالمصدر للتّأكيد والمبالغة

كلمة ﴿قِسۡمَةُۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ تدلُّ على القَطع والتّجزئة بالعدل والإنصاف، ممّا يُبرزُ أنَّ توزيعَ الماء ليس جُزافًا، بل هو أمرٌ مُقدَّرٌ مَقسومٌ مِنَ اللّه تعالى، ومن جهة الصّيغة (فِعْلَة) فتفيد المَصدريّة[3] الدّالّةَ على الحَدَث نفسه؛ أي: فعل القَسْم والتّوزيع، وفيها إشعارٌ بالدّوام والتَّجدُّد، وكأنّ عمليةَ القِسمة مُستمرَّةٌ وثابتةٌ.

غرض تنكير لفظ ﴿قِسۡمَةُۢ﴾:

كلُّ مقسومٍ مِنَ الله عظيمُ الشّأن فلا يُعتدَى عليه

نُكِّر لفظ ﴿قِسۡمَةُۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ للعِلم بمضمون اللّفظ ومعناه، ولتعظيم القِسمة وتفخيم شأنها؛ أي: قِسْمةٌ عظيمة الشّأن، ليسَت كسائر القِسْمات؛ لأنّها من

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 200.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 200.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 200.

عند اللّه لا مَدخَل لأحد فيها، وهي فاصلةٌ قاطعةٌ، لا تُردُّ ولا تُبَدَّلُ، وهي مَخصوصةٌ مُتميّزةٌ، لا تُشبهُ ما يَعرفونه من تقسيمٍ بشريٍّ.

دلالة الظّرفيّة ﴿بَيْنَهُمْ﴾:

قِسمةُ الله عادلةٌ حاسمةٌ كنتيجة مُخالَفَتِها

أفاد استعمالُ الظّرفيّة في قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ التّوزيعَ العادلَ والمُشاركةَ المُتوازنةَ، فالماء قد وُضع في مَوضِعٍ وسط يُقسَمُ بينهم بالسَّويّة[1]، لا يختصُّ به طرفٌ دون آخر، وفيه: ترسيخُ معنى العدل الإلهيِّ في القِسمة، وقَطعُ التَّذرُّعِ بالمُخاصَمة؛ لأنّ الظّرفيّةَ (البينيّة) تضمنُ أنَّ كلَّ طرفٍ حاضرٍ في حقِّه ونصيبِه.

تعيين مَرجِع الضّمير ودلالته التّغليبيّة:

تقسيمُ الماء بين قبيلةٍ ظالمةٍ وبهيمةٍ مُرسَلةٍ حكمةٌ ماضيةٌ

الضّمير في قوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عائدٌ على أهل القرية والنّاقة معًا، لا على البشر وحدَهم، وذلك من باب (تغليب العقلاء)، فغُلِّب ضميرُ الجمع العاقل حتّى لو كان بعضُ المَذكورين غيرَ عاقلٍ، كالنّاقة هنا. ووجه ذلك: أنّ النّاقةَ، بعد أن ظهرَت كآيةٍ، لم تكُن مُجرَّد بهيمةٍ مَملوكةٍ لأحد، بل هي آيةٌ مُرسَلةٌ مِنَ اللّه، وكان لها حقٌّ مَعلومٌ في الماء كالبشر، كما في قوله: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشّعراء: 155]، فكان لها نَوْبَةٌ في الماء تُراعَى مِثلَ نَوْباتِهم، وهذا التّناوبُ في الشُّرب هو بدايةُ الفتنة الّتي كشفَتْ مَواقِفَ القوم، فشَحّوا بالماء، وأضمروا الأذى، فاستحقّوا الوعيدَ والعذابَ[2]. ففي هذا السّياق قولُهُ: ﴿قِسْمَةٌ﴾ يفيدُ التّوكيدَ على أنّ الماءَ موزَّعٌ بعدلٍ، ونظامٍ مَرعيٍّ. وقوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ تغليبٌ عقليٌّ، دلَّ على اشتراك البشر والنّاقة في مَوردٍ واحدٍ بأمرٍ إلهيٍّ.

(1) الرّاغب، المفردات: (بين).
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 201.

نُكْتَةُ فصلِ قوله: ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾:

بيان القِسمة بين ثمودَ والنّاقةِ حقُّه الفَصْل

جملةُ ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ لا محلَّ لها مِنَ الإعراب، جاءَت تفصيلًا وبيانًا[1] لِما في قوله: ﴿ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾. وسببُ الفصل: أنّها بمَنزلةِ الجواب عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: كيف تكون القِسمة؟ فجاء البيانُ: كلُّ شِربٍ يَحضرُهُ صاحبُهُ المُخصصُّ به. فالفصلُ هنا لإبراز هذا الحُكم كجملةٍ قائمةٍ بذاتها، توضِّحُ القِسمةَ، وتُؤكِّدُ عدلَها، لا باعتبارها قيدًا تابعًا، بل حُكمًا مُستقلًّا.

نُكْتَةُ التّعبير بلفظ العُموم:

الشّمول في حُكم الله يضمَنُ عدلَ القِسْمة، ويمنَعُ الفوضى

أفاد التّعبيرُ بلفظ العموم ﴿كُلُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ الإحاطةَ والشّمولَ، بحيثُ لا يُستثنى أحدٌ من نظام القِسْمة، فيُشعِر بالمُساواة المُطلَقةِ في التّوزيع. وهذا له دلالةٌ بالغةٌ في تحقيق الضّبط الصّارم لمَورِد الماء، فلا مَجالَ للنِّزاع أو الطُّغيان، إذ إنَّ كلَّ شِربٍ – للقوم أو للنّاقة – مُحدَّدٌ حاضرٌ عند أهله بانتظام.

دلالة التّنوين في لفظِ ﴿شِرْبٍ﴾:

التّنوين في لفظ ﴿شِرْبٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ على تقديرِ مضافٍ إليه، أي: كلُّ شِربِ ماءٍ مُحتَضَرٌ.

دلالة التّعبير بـ﴿شِرْبٍ﴾ مادّةً وصيغةً:

الأرزاق مِنَ الله، فتوزيعُها ابتداءً وانتهاءً، أمرًا واختيارًا، يَحتكِمُ للرّضا التّامّ

تدلُّ كلمةُ ﴿شِرْبٍ﴾ في أصلها على تناولِ مائعٍ مَخصوصٍ بالفم، فيدلّ على أنّ (الشِّرب) في الآية هو اسمٌ على نصيبٍ مَخصوصٍ يُتناولُ بحسب التّوزيع المُقدَّر له[2]. كما دلَّتِ الصّيغةُ ﴿شِرْبٍ﴾ بكسر الشّين، وهي اسمُ مَصدرٍ على إرادة الحصّةِ المُقرَّرةِ على جهة التّكرار والدّوام، فكأنّ كلَّ نَوبةٍ تُعطى هي (شِربٌ) كامِلٌ مُستقلٌّ، لا مُجرَّدَ جُرعةٍ عابرةٍ، وهي اسمُ مَصدر؛ لدلالتها على الشّيء أو

(1) صافي، الجدول: 14/ 76.

(2) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (شرب).

الذّات (الحصّة والنّصيب مِنَ الماء المُخصّص للشّرب)، ولا تدلُّ على الحَدَث نفسِه الّذي هو بضمِّ الشّين وفتحِها، شُرب في مصدر[1].

نُكْتَةُ اختيارِ الجملة الاسميّة دونَ الفعليّة:

جاء التّعبيرُ بالاسميّة في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾ واسم المفعول ﴿مُّحۡتَضَرٞ﴾؛ لإفادة أنَّ هذا الشِّربَ ثابتٌ ومُؤهَّلٌ لأن يُقصَد، ملازمٌ لأصحابه لا ينفكّون عنه. وفيه دلالةٌ على أنّ هذا النّظامَ في قِسمة الماءِ صار قانونًا مُستقرًّا، لا يَعتريه التَّبدُّلُ أو التّفاوتُ، ولو قيل: (كلُّ شرب يُحضَرُ فيه) (جملة فعليّة) لكان المعنى: أنّ حضورَهم للماء يَحدُثُ ويتجدَّدُ في كلِّ وقتِ شُربٍ، لكنّه لا يوحي باللّزوم والثّبات. وقد استخرج البقاعيُّ مِنَ الصّيغة الاسميّة هذه دلالةَ التّشريفِ والتّعظيم للمَورِد، وتحبيب الحضور إليه، واستحقاقه لأن يكونَ مَوضِعَ تزاحُمٍ أو فِتنةٍ واختبارٍ؛ أي: أنّ هذا الشِّربَ أو المَورِدَ الّذي يُحتَضَرُ - له مِنَ العظمة والغرابة ما يجعلُهُ مَوضِعَ اهتمام، كأنّ الأنفسَ تتكلَّفُ الحضورَ إليه[2]. وهذا المعنى لا يَكفي في الوفاء به التّعبيرُ بالجملة الفعليّة، بل يليقُ بتعبيرٍ اسميٍّ يدلُّ على ثباتِ القِسمةِ فيه، ويُلائِمُ مكانةَ المَشرَبِ الّذي تعلَّقَ به مَظهرٌ من مَظاهر آياتِ الامتحان والابتلاء.

النّظام الإلهيُّ ثابتٌ، ومَنِ اعتدى عليه فإنّما يَعتدي على نفسه

نُكْتَةُ حذفِ مُتعلَّق اسم المفعول:

حُذِفَ مُتعلَّقُ الحضورِ في قوله: ﴿كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾، والتّقدير: (مُحتَضَرٌ عنده)؛ أي: عند الماء، وحُذف لشدّة وضوحه ودلالة السّياق عليه اعتمادًا على فهم المُتلقّي[3].

شدّةُ وضوحِه ودلالةُ السّياق عليه

نوع الفاء ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ﴾ هي الفصيحة، عاطفةٌ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (شرب)، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 166.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 121.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 201.

مَدخولَها على مُقدَّرٍ محذوفٍ قبلَهُ؛ أي: فأرسلْنا النّاقةَ، وكانوا على هذه الوتيرة مِنَ القِسْمة، فمَلّوا ذلك، وعزموا على عَقر النّاقة ﴿فَنَادَوْاْ﴾ لِعقرِها ﴿صَاحِبَهُمْ﴾[1].

المجموع الفاسد يبحَثُ عن قائده إلى الباطل

دلالة التّعبير بمُفردة النّداء:

اختار النّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالنّداء في قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ﴾ لِمُطابقته للواقع، فهو أبلغُ من أن يُقال: (فقالوا لصاحبهم) أو (فطلبوا من صاحبهم)؛ لأنّ النّداءَ دالٌّ على جَهْرهم وانفعالهم، إذِ النّداءُ صوتٌ مُرتفِعٌ يَشي بالتّحريض والإثارة والانفعال الجماعيِّ[2]. والتّعبيرُ بالنّداء يوحي بأنّ القومَ كانوا في حالٍ مِنَ الحماس والتّهييج، حتّى إنّهُم صاحوا به ليقضيَ مُصيبتَهم بندائهم.

نـداءُ التّهييج عـلى اقـتراف الباطل نداءٌ على الانتحار الذّاتيّ

نُكْتَة إسنادِ فعلِ النّداء إلى ضمير الجماعة:

أُسند فعلُ النّداء في قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ﴾ لضمير الجماعة؛ لبيان اتّفاق القوم على الاستغاثة بصاحبهم، وأجمعوا أمرَهم، وحمّلوه مَسؤوليةَ التّنفيذ، وهذا المعنى تُخْفيه الألفاظُ الأخرى كالقول أو الطّلب. ففي هذا تصويرٌ لحالة التّآمُر الجماعيِّ على الجريمة، فصار الأمرُ مُشترَكًا بينهم وبين صاحبهم؛ ففيه إدانةٌ جماعيّةٌ بالتّواطؤ.

التّحريضُ الجماعيُّ على الباطل يفضَح انحطاطَ الأُمّة

بلاغة التّعبير بلفظ الصّاحب:

آثرتِ الآيةُ استعمالَ لفظِ الصّاحب في قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ﴾ بدلًا مِنَ التّصريح بالاسم، أو الاكتفاء بوصفه بالفعل (كالقاتِل أو العاقِر)؛ وذلك لبيان أنَّ هذا العاقِرَ هو صاحبُهُم الّذي بينَه وبينَهم اتِّفاقٌ سابقٌ على فعلٍ ما، وليس المُرادُ بالصُّحبة

الصُّحبةُ المَقصودة هي صحبةُ الاتّفاق المُسبَقِ على إنفاذ أمر

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 89، والقنّوجي، فتح البيان: 13/ 300.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 311، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ندي).

المُلازمةِ الودّيّةِ الّتي تكون بين اثنين، بل هي مُلازِمةُ الاتِّفاق على القيام بأمرٍ مُسبَقٍ اتُّفِقَ عليه.

نوع الإضافة ودلالتُها:

إضافة الصّاحب إلى الضّمير ﴿صَاحِبَهُمْ﴾ بمعنى (من)، باعتباره أحدهم، وبمعنى اللّام باعتبار قيامِه بفعلٍ مخصوصٍ لهم، والاحتمالان مُتآيلان.

نوع الفاء ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ تدلُّ على التّرتيب والتّعقيب، وهي فاءٌ تفيدُ أنّ الفعلَ الثّاني وقَعَ مُباشرةً بعد الأوّل، وبلا غيًّا تفيدُ أنّ صاحبَهم لم يتأخّر أو يتردَّد بعدَ أن نادوه، بل بادرَ بالفعل بسرعةٍ. فيُفهَمُ مِن ترتيب الأفعال: ﴿فَنَادَوْاْ﴾، ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾، ﴿فَعَقَرَ﴾، أنّ النّداءَ وحدَهُ فتحَ بابَ الجريمة المُتَّفقِ عليها سريعًا، وساقَ الأحداثَ نحو النّهاية الرّهيبة دون فاصلٍ، فالفاء في ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ تُبرِزُ فوريَّةَ الإقدام، وتَسَرُّعَ الفاعلِ في ارتكاب الموبقةِ بمُجرَّد النّداء[1]، وليس لأحدٍ أن يقومَ بهذا الفعل وبهذه الكيفيّة تجاهَ أمرٍ يخصُّ المجموعَ إلّا بعدَ الاتّفاق مع المَجموع، وتواطؤ الجميع عليه.

التّفريع بالفاء يُصَوِّر الانحدارَ الأخلاقيَّ السّريعَ في الإقدام على الجريمة

دلالةُ التّعبير بصيغة (تفاعَلَ):

مجيءُ لفظِ ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ على وزان (التَّفاعُل) في قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ يدلُّ على مُشاركةٍ أو تدرُّجٍ أو تكلُّفٍ. وهو هنا من عَطا يَعطو؛ أي: تناولَ بيده شيئًا. ولم يقُل: (فأخذ) أو (فتناول)؛ لأنّ (تعاطى) تُشيرُ إلى تَردُّدٍ، وتَكلُّفٍ، ومُبالغةٍ، وجُرأةٍ في الإقدام على الفعل، فهذه "الفِعلَة تَدافَعَها النّاسُ وأعطاها بعضُهُم بعضًا، فتَعاطاها هو وتناولَ العُقرَ بيده"[2]، وتوحي الصّيغةُ

التّواطُؤ على فعل الإثم العامّ يقعُ بالنّيابةِ والوكالة

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة القمر، ص: 283.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 218.

بأنَّ القتلَ لم يكُن خاطِفًا مُفاجِئًا، بل فعلًا تمّ التّجهيزُ له والتّدبيرُ لإنفاذه. فاختيارُ هذا اللّفظ دونَ غيره يُفصِحُ بلطفٍ عن تآمرٍ دفينٍ، وتواطؤ مَشينٍ، وتردُّدٍ مَفضوحٍ...، ثمّ وقوعٍ في المَحذور[1].

بلاغة التّعبير بلفظ ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾:

الجُبنُ الجماعيُّ ينتهي بتوكيل فـردٍ مُـتـهـوّرٍ يـقـودُهـم إلى الهاوية

استعمالُ لفظِ التّعاطي يُصوّرُ استعارةً تمثيليّةً بليغةً، فشُبِّهَ حالُ القومِ في تردُّدِهم وتدافُعِهم عن مباشرة عَقرِ النّاقة، بحال قومٍ يتداولون كأسًا مِنَ السُّمّ أو سيفًا يُخشَى استعمالُه، فكلٌّ يدفَعُهُ للآخر، حتّى انتهى إلى صاحبهم، فكلٌّ يتظاهرُ بالإقدام ثمّ يتراجَعُ، ويدفعُهُ لغيره، فصوِّرَتِ الحالةُ النّفسيّةُ والمَوقِفُ الجماعيُّ كلُّه بصورةٍ تمثيليّةٍ مَجازيّةٍ قائمةٍ على مَشهَدٍ مَعروفٍ. فالمُشبَّه: حالُ القومِ في تردُّدِهم وتخوّفِهم من عَقر النّاقة، والمشبَّه به: حالُ المُتخوِّفين من تعاطي سُمٍّ أو استعمال سيفٍ في مَوقِفٍ خطيرٍ. ووجهُ الشّبه: التّردُّدُ والتّمانُعُ، وتَدافُعُ المسؤوليّةِ، وكأنّ الأمرَ سمٌّ أو سيفٌ يُخافُ منه[2].

دلالة العطف بالفاء في فعل ﴿فَعَقَرَ﴾:

سـرعـة عـقـر الأشقى للنّاقة

عطف ﴿فَعَقَرَ﴾ بالفاء علَّل قوله: ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾؛ للدّلالة على سرعة إتيانِه ما دعوه لأجله من قتل النّاقة[3]؛ أي: فتَعاطى صاحبُهم آلةَ القتلِ فعَقَرَ النّاقةَ[4].

دلالة الفاء في جملة: ﴿فَكَيْفَ كَانَ﴾:

الـرّبـطُ بين الـجـريـمـة والعقوبة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ تفيدُ التّرتيبَ والتَّسبُّبَ؛ أي: لمّا عقرَها، ترتَّبَ على ذلك عذابُ الله تعالى وأثرُ النُّذُر، ففي التّفريع ربطٌ بين الجريمة والعقوبة.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 167، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 172.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 201، 202.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 202.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 311.

بلاغة التّعبير بأسلوب الاستفهام دون الإخبار:

مَن تأمّلَ عاقبةَ المُكذّبين عَرَفَ قَدْرَ الإنذار ووجوبَ الاتّعاظ

آثر النّظمُ الكريم الإخبارَ عنِ العذاب بشأن ثمودَ بأسلوب الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، دون الخبر الصّريح، فلم يقُل: فعذَّبتُهم، أو فأهلكتُهم؛ لكونه أبلغَ في تهويل العذاب، فجاء بلفظ (كيف) الّذي يُدخِلُ السّامعَ في مَقام التَّأمُّل والتَّخيُّل، كما أنَّ في التَّأمُّل والتَّفكُّر مَلمَحُ التّهديد الضّمنيِّ لِمَن أراد اقتفاءَ أثرهم، واتّباعَ مَسيرتِهم، وفيه تشويقٌ لِمعرفة تفاصيل العذاب، إذ هو جارٍ على أسلوب الإبهام للتّهويل. وفي الاستفهام معنى التّوبيخ للمُخاطَبين؛ لأنّ السُّؤالَ موجَّهٌ لهم، كأنّه قيلَ لهم: ألَم تَرَوا كيف عذَّبتهم؟.

نُكتَة عطفِ النُّذُر على العذاب:

لا ينزلُ العذابُ الإلهيُّ إلّا بعد نذيرٍ رحمانيٍّ

أفاد الجمعُ بين العذاب والنُّذُر في قوله تعالى: ﴿عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ في التّنبيه على أنّ العذابَ لم يأتِ فجأةً، بل بعدَ إنذارٍ مُتكرِّرٍ، والتّكرارُ حاصِلٌ من جمع (نذر)، ففي الجمع بينهما تذكيرٌ بحجّة اللّه عليهم: أنّ العذابَ لم يكُنْ ظلمًا ولا مُباغتةً، بل بعد تحذيرٍ واضحٍ.

مَوقِع قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً﴾:

جاءَت جملة ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً﴾ في مَوقِع البيان والجواب عن ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ فهو مثل مَوقِع قوله ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ في قصّة عاد[1].

بلاغة الاستعارة في لفظ الإرسال:

الصّيحةُ جنديٌّ من جند الله يُهلِكُ به مَن يشاء

في لفظ الإرسال في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ استعارةٌ، فقد شبِّهتِ الصّيحةُ بجُندٍ أو رسولٍ يُرسَلُ بالعذاب، وحُذِفَ المشبَّهُ به، ورُمِزَ إليه بلازمِهِ وهو الإرسال، على

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 202.

سبيل الاستعارة المَكنيّة التّبعيّةِ، وفائدةُ الاستعارة: تصويرُ الصّيحةِ بصورة القوّةِ المُنظَّمةِ المأمورةِ من عند الله، تتحرَّكُ بأمره كما يتحرَّكُ الجُندُ المُرسَلُ، فيتجلّى مَشهَدُ إرسالِها عليهم بالقوّة والقَهْر.

دلالةُ وصفِ الصّيحة بواحدة:

العذابُ الإلهيُّ يَنزِلُ بجنديٍّ واحدٍ قاصِمٌ للمُجرِمين

وَصْفُ الصّيحةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ بلفظ ﴿وَٰحِدَةً﴾ يتضمّنُ نُكْتَةً بلاغيّةً قويّةً، هي الإشارة إلى كونها خارقةً للعادة، فلو كانَت صيحاتٍ مُتكرِّرةً أو عذابًا مُمتدًّا لكان أقربَ إلى المألوف؛ أمّا كونُها صيحةً واحدةً، ومع ذلك فقد أفنَتْ قبيلةً كاملةً، فذلك يُشيرُ إلى شدّة وقعِها وفظاعةِ أثرِها؛ ويُظهِرُ جبروتَ القدرة الإلهيّة، فأنْ تهلكَ أمّةٌ كاملةٌ بصيحةٍ واحدةٍ تقريعٌ وتخويفٌ للمُخاطَبين، فما أمرُ النّاس إلّا صيحة واحدة، فبمُجرَّد أمر واحد يُفني. كما أنّ في وصف الصّيحة بـ﴿وَٰحِدَةً﴾ تهكُّمٌ بأعداء الله، فقوّتهم لا تساوي شيئًا، حتّى إنَّ أضعفَ وسائل العذاب من حيثُ الكمّ ﴿وَٰحِدَةً﴾ كانت كافيةً لتدميرهم، فهُم لا يستحقّون أكثرَ من صيحةٍ واحدةٍ؛ فهي أبلغُ في إظهار خِذلانهم وسقوطهم. ومن جهةٍ أخرى، فيها تصويرٌ لِفُجاءة العذاب؛ فكلمة ﴿وَٰحِدَةً﴾ توحي بالمُباغتة، وكأنّها لم تُمهلْهم أو تتكرَّرْ عليهم، فجاءَت مُباغتةً، قاضيةً، مُدمِّرةً[1].

نوع الفاء ودلالتُها:

الفاء في جملة ﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ تفريعٌ لأثَرِ الصّيحةِ على إرسالها؛ لتصوير ما بعد الصّيحة،؛ أي: بسبب إرسالها صاروا كالحطب المُكسَّر، اليابس، المُتناثِر[2].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 202.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 123.

دلالة استعمال (كان) دون (صار):

مصيرُ المُكذِّبين مَرهونٌ بفجأةِ العذاب وبَغْتةِ الهلاكِ

أفاد استعمالُ (كان) في قوله تعالى: ﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ تحقُّقَ الوجودِ في الزّمن الماضي، كأنّه قيل: (أرسلَ عليهم صيحةً فماتوا)، فإرسالُ الصّيحةِ مُتّصلٌ بحال مَوتهم المُعبَّر عنه بالمُشبّه به ﴿كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾. وهذا أدقُّ من (صاروا) الّتي قد تحملُ دلالةَ التَّحوّلِ التّدريجيِّ. والفارق بين (كان) و(صار)، أنّ (صار) تُستعمَلُ إذا لم يمكنْ أن يُقالَ: هو كذا؛ أي: في مَقام التَّحوُّل الحقيقيّ، مثل: (صار البيضُ فِراخًا)؛ لأنّك لا تستطيعُ أن تقولَ: (البيضُ فِراخٌ) إلّا بعدَ التَّحوّل. أمّا في الآية فيصحُّ معنًى أن يُقال: (هم كهشيم) بعد وقوع الصّيحة بالفعل، بلا حاجة إلى حمل (كان) على (صار)[1]. وعليه: فالتّعبيرُ بـ ﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ أبلغُ من (صاروا)؛ لأنّه يُفيدُ أنّ تشبيهَهم بالهشيم صار حالًا مُشاهَدًا وواقِعًا بلا زمنٍ تحوّليٍّ، ويشيرُ إلى فجائيّة المَصير بعد صيحةٍ واحدةٍ؛ ويحملُ دلالةَ الانقطاع الكاملِ لِما كانوا عليه من قوّةٍ ومَنَعَةٍ[2]، وفيه تناسبٌ مع بنية السّورة القائمة على الفجاءة والحَسْم.

بلاغة التّشبيه ومناسبته التّاريخيّة:

التّشبيهُ القرآنيُّ مُتناسِبٌ مع واقعِ الأقوامِ المتُحدَّث عنهم

في قوله تعالى: ﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ تشبيهٌ مُرسَلٌ، ذُكِرَت فيه الأداةُ، حيثُ شُبِّهوا بالشّجر اليابس، الّذي يتّخِذُه مَن يعمَلُ الحظيرةَ لأجلها، أو كالحشيش اليابس الّذي يجمَعُه صاحبُ الحظيرة لِماشيته في الشّتاء[3]. وهو تشبيهٌ يدلُّ على تحويلهم إلى بقايا لا حياةَ فيها ولا قِوامَ. وقد ناسبَ تشبيهُ ثمودَ بعد هلاكهم بقوله: ﴿كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ باعتبار أنّ ثمودَ كانَت في بيئةٍ رعويّةٍ وزراعيّةٍ، فشُبِّهوا بما كانوا عليه في البيئة الّتي يعيشون فيها،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 311.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 123.
(3) صافي، الجدول: 14/ 77.

فتشبيهُهم بالهشيم المُضاف للمُحتظِر تشبيهٌ لهم بما هو ساقِطٌ لا قيمةَ ولا نفعَ له. وفيه كنايةٌ عنِ انقلابهم الكامل مِنَ الحضارة والعمار إلى الخَراب والانهيار، فقد كان أصحابُ الحِجْر أهلَ تشييدٍ وتحضُّرٍ، فلم يبقَ من آثارهم شيءٌ له نفْع.

فائدةُ التّشبيه بهشيم المُحتظِر:

المُـفـسِـدُ في الأرض يُحطَّمُ كـالـهـشـيـم، ومَـصـيرُهُ إلى الجحيم

تشبيهُ ثمودَ بهشيم المُحتظِر في قوله تعالى: ﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ «يُحتمَلُ أن يكونَ التّشبيهُ بكونهم يابِسين كالحَشيش بين الموتى الّذين ماتوا من زمانٍ، وكأنّه يقول: سَمِعوا الصّيحةَ فكانوا كأنّهم ماتوا من أيّام، ويُحتمَلُ أن يكونَ لأنّهم انضَمّوا بعضُهم إلى بعضٍ كما يَنضمُّ الرُّفقاءُ عند الخوفِ داخلينَ بعضُهم في بعضٍ، فاجتمعوا بعضٌ فوق بعضٍ، كحَطبِ الحاطبِ الّذي يَصُفُّهُ شيئًا فوقَ شيءٍ، مُنتظِرًا حضورَ مَن يشتري منه شيئًا، فإنّ الحَطّابَ الّذي عندَه الحَطبُ الكثيرُ يَجعلُ منه كالحَظيرة، ويُحتمَلُ أن يكونَ ذلك لبيان كونِهم في الجحيم؛ أي: كانوا كالحَطب اليابس الّذي للوَقيد، فهو مُحقِّقٌ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: 98]، وقولِه تعالى: ﴿فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجنّ: 15]، وقولِه: ﴿أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ [نوح: 25]، كذلك ماتوا فصاروا كالحَطب الّذي لا يكونُ إلّا للإحراق؛ لأنّ الهشيمَ لا يَصلُحُ للبناء»[1].

دلالة الإضافة وفائدتُها:

مَـن أفـسـدَ الـعـمـلَ بعد الـجَـهـد سـوّيَ بـبـقـايـا المَـتـاع التّالِف

إضافةُ الهشيم لذاتِ المُحتظِر في قوله: ﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ هي إضافةٌ لأدنى مُلابسة[2]؛ لأنّ صاحبَ الحظيرة هو الّذي يجمَعُ الهشيمَ[3]؛ ولإفادة قلّةِ الشّأن والمَهانة؛ لأنّ الهشيمَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 312.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 330.
(3) الواحديّ، البسيط: 21/ 113.

المُرتبطَ بالمُحتظِر هو أدنى الهشيم مَنزِلةً؛ لأنَّه من فضلاتٍ مَتروكةٍ لا يُنتفَعُ بها، وقد رُميَت بعد أن تهشَّمَت[1]. وفي الإضافة إشارةٌ إلى المصير بعد الفعل، فكما أنّ الهشيمَ نتيجةُ فعلِ المُحتظِر، فمصيرُ ثمودَ نتيجةُ فعلِهم واختيارِهم - تعاطَوا الجريمةَ، فحلَّ بهم ما جعلَهُم كهشيم مَن احتظر. ولذلك لم يقُل: فكانوا كالهشيم، ولم يقُل: فكانوا كهشيم الحظيرة؛ لأنّ الهشيمَ وحدَه قد يكون نافعًا، وقد يُحرَّزُ في المُستودَعات ليُتَّجَر فيه. وهشيمُ الحَظيرة هو المَصفوفُ المَرصوفُ الّذي به بناء الحَظيرة، ففيه خيرٌ ونفعٌ[2]، أمّا هنا فالإضافة عيَّنَت المَقصودَ، ودلَّت على المراد بما هو ضارٌّ غيرُ نافعٍ، سرعانَ ما يَتخلَّصُ منه المُحتظِر.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾:

الصّورُ الحِسّيّةُ المعهودةُ أقوى في استحضار المَشهَد الغَيبيّ

(أل) في لفظ ﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ للعهد الذّهنيِّ العموميِّ، إذ تستحضِرُ صورةً مَعروفةً معهودةً عند العرب، وهو راعي الأنعام الّذي يَحتظِرُ لأنعامه ومواشيه حظيرةً من هشيم الشّجر. فالتّعريفُ هنا يَستحضِرُ مَشهَدًا مَحسوسًا مَألوفًا لهم، فيقارنون حالَ المُهلِكين المُبعثِرين بالهشيم المُتكسِّر في الحظيرة، فيتضاعفُ وقعُ تأثير ذلك في نفوسهم.

دلالة الافتعال في اسم الفاعل ﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾:

نهاية المُنشغل في الدّنيا عن الآخرة كهشيم حظيرةٍ بعد طولِ اجتهاد

المُحتظِر: مُفتعِل مِنَ الحظيرة؛ أي: مُتكلِّفٌ عملَ الحَظيرة[3]. فصيغة (افتعل) تدلُّ على التَّكلُّف في الفعل، وبذلِ القصدِ والجُهدِ في أداء الصَّنعة. فالمُحتظِرُ هو الّذي يقصِدُ ويتكلَّفُ صناعةَ الحَظيرة، كما تفيدُهُ صيغةُ (مُفتعِل). و(الهشيم) هو ما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 123.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 203.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 203.

تفتَّتَ وتناثرَ من أعواد الحَطب وسَقَطَ عنِ البناء. فإذا أُضيف الهشيمُ إلى ﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ كانَتِ الإضافةُ إلى ما سَقَطَ منه، أو فاتَهُ استعمالُهُ، أو تناثَرَ عن عمله. فالنّتيجة: أنّهم شُبّهوا بما لم يُنتفع به رغمَ الجُهدِ المَبذولِ والقَصدِ المُتكلَّف؛ أي: صاروا كفضلاتِ الصَّنعة، وبقايا العمل، وسُقاط الحيلة. وهذه نُكْتَةٌ شديدةُ التّوبيخ، فهم لم يُشَبَّهوا بالحَظيرة في كمالها، ولا بالحَطب في أصله، بل بهشيم الحَظيرة المُتناثِرِ المُهمَلِ بعد العملِ عليه، أو السّاقطِ قبل أن يُستفادَ منه، ففيه لطيفةٌ وعظيّةٌ بأنَّ المُعتَني بأمر الدّنيا والمُنشغِلَ فيها عنِ الآخرة نهايتُهُ فيها كهشيم مَنِ اجتهدَ في حظيرته، وتشبيهُهُم بهذا النّوع مِنَ الهشيم أذلُّ لهم من أن يُشبَّهوا بهشيم الرّياح أو غيرها؛ لأنّ الهشيمَ هنا صورةٌ لِما لم يُتَمَّمْ ولم يُنتفَعْ به. وهذا النّمطُ مِنَ الإشارة إلى ضياع الجَهدِ والتَّكلُّف هدرًا، له نظائرُ في القرآن مثلُ قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: 23]، وقوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ [البقرة: 264]. فجميعُها يُشير إلى خسارة العمل مع وجود الجُهد الظّاهر، وهو ما استُفيد أيضًا من قوله: ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ بهذا الفهم المُختَزَل في صيغة (مُفتعِل).

❁ الفُروقُ المعجميّة:

الأشَرُ، والفرحُ، والبَطَرُ:

الفرح يُمدَحُ ويُذمُّ بحسب المَقام، بخلاف البَطر فهو مَذمومٌ، والأشَر أشدُّ منه

الأشَرُ: شدّةُ البَطَر. فهو أبلغُ مِنَ البَطَر، والبَطَرُ أبلغُ مِنَ الفَرَح، فإنّ الفَرحَ - وإنْ كان في أغلب أحوالِهِ مَذمومًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القَصص: 76] - قد يُحمَدُ تارةً إذا كان على قَدْر ما يَجب، وفي المَوضِع الّذي يَجب، كما قال تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: 58]، وذلك أنّ الفَرحَ قد يكونُ من سُرورٍ بحسب قضية العقل،

والأشَرُ لا يُمتدَحُ الإنسانُ عليه؛ لأنّه لا يكونُ إلّا فرحًا بحسب قضيّة الهوى[1]. فالأشَرُ لفظٌ يدلُّ على الحِدَّة والتَّطرُّف في الصّفة[2].

والبَطَر هو المَنزِلةُ الوسط بين الأشَر والفَرح، وهو البَطَر: دَهَشٌ يعتري الإنسانَ من سوء احتمالِ النّعمةِ وقلّةِ القيام بحقِّها، وصرفِها إلى غير وجهها[3]. ولا يكونُ إلّا مَذمومًا؛ لأنّه فرَحُ سوءٍ يحمِلُ على الإفساد. وأمّا الفرحُ فهو مُطلَقُ المَسَرّة، فإنْ كان سرورًا بخيرٍ فهو خيرٌ، وإنْ كان سرورًا بشرٍّ فهو شرٌّ. وعليه فالبَطَرُ هو المُبالغة في الفَرح، والأشَرُ هو المُبالغةُ في البَطَر، والفرحُ هو أصلُ ذلك كلّه.

القتل والعَقر:

القتْلُ: هو إزالةُ الرّوح عنِ الجسد[4]، وقد يقعُ بعَقرٍ وبغيره؛ كموتِ السُّمِّ وموتِ الكَمَدِ والقَهْر، وموتِ الجوع.

العَقر قطعٌ يُفضي إلى الموت، والقتلُ إزالةُ الرّوحِ عمومًا

وأمّا العَقْرُ: فهو الجَرحُ والقَطعُ[5]، وقد يكون بقصدِ إيقاعِ الموتِ، أو بقصدِ الإيذاءِ فقط، وفي الآية بقصد إنهاءِ الحياة، وقد قال تعالى: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾؛ لأنّه قتلٌ بالنَّحر الّذي لا يكونُ إلّا بالجَرْح والقَطع. ومنه قولهم: عقرتُ البعيرَ؛ أي: ذبحتُه نحرًا، فأصابَ النّاقةَ إصابةَ موتٍ بالعَقْر والنّحر، كما تُعقَر سائرُ النّوق.

(1) الرّاغب، المفردات: (أشر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أشر).
(3) الرّاغب، المفردات: (بطر).
(4) الرّاغب، المفردات: (قتل).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (عقر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والخمسون،
سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والخمسون، سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 58 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-62-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 58 : المجلد الثامن والخمسون، سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-62-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4238337 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"